

الفصل الثاني

تطور الشعر الأموي مع الحياة

١

الحياة الدينية

كان عرب الجاهلية في أكثر أنحاء الجزيرة العربية وثنيين ماديين ، لا يهتمهم من الحياة سوى المتع الحسية ، فلما جاء الإسلام أضاء قلوبهم بمثالية روحية كريمة ، تقوم على نبذ الحياة الدنسة القديمة إلى حياة طاهرة جديدة ، كلها عبادة ، وتبتل إلى الله ، وتوسل إليه ، وبجاهدة للنفس ، حتى ترفض عرض الدنيا وتطلب ثواب الآخرة .

وقد حضّ القرآن الكريم في غير موضع على التقوى ، فقال جل شأنه : (إنما يتقبل الله من المتقين) كما حضّ على ذكر الله وتسبيحه ، فقال جلّ وعز : (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبّحوه بكرة وأصيلاً) . وقال تعالى : (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر) .

وبجانب ذلك نجد دعوة إلى التوكل على الله حتى التوكل من مثل قوله تعالى : (وعليه فليتوكل المتوكلون) كما نجد دعوة إلى الزهد في متاع الدنيا ومغانمها من مثل قوله عز وجلّ : (فعند الله مغامٌ كثيرة) . وصور الذكر الحكيم تصويراً رائعاً نعيم الجنة التي أعدت للمتقين ، وعذاب النار التي أعدت للعاصين . وفي الوقت نفسه حضّ القرآن الكريم في غير موضع على الخلوص لله والاستسلام له والانقياد إليه ، فهو ذو السلطان غير المحدود ، وهو أيضاً غفور رحيم : (كتب على نفسه الرحمة) (ورَحمتي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) .

ودائماً نجد إشارات وتوجيهات إلى العمل الصالح وأن الفائزين برضوان الله هم : (التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون

بالمعروف والنَّاهون عن المنكر) وكذلك الفائزات (مسلمات مؤمنات قانتات
تأثبات عابدات سائحات) وكلمة سائحين وسائحات قد تُفيد الرحلة عن الدنيا
ومتَّعها .

وهذا كله صرف كثير من المسلمين الأولين إلى الزهد في حطام الدنيا
وأكد لهم الحديث النبوي ذلك ، من مثل ما يُروى من أن رجلاً قال للنبي
صلى الله عليه وسلم : « دُتِّي على عمل إذا أنا عملته أحببني الله وأحبنى الناس ،
قال : ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس ^(١) » .
فانذرع كثير من الصحابة في حياة ناسكة ، كلها تقوى ، وعبادة ، ورفق
لنخرُف الدنيا وتُقشَّف ، وابتهاج إلى الله ، وتوكل عليه ، وانتظاراً لما عنده . ومن
هؤلاء الصحابة معاذ بن جبل ، وأبو بكر ، وعلي ، وعمر الذي كان يقول :
استغزروا الدموع بالتذكر ^(٢) . وكان ابنه عبد الله من كبار الزهاد ، ورسم ابن
سعد لزهده في طبقاته صورة طريفة ، فقال : إنه كان يترك الحمام يعدُّه من
ريق العيش ، وكان لا يلبس الخبز ، ولا يشرب في أقذاح مفضضة ولا من زجاج ،
إنما كان يشرب في أقذاح من عيدان ^(٣) . ومثله كان عبد الله بن عمرو بن العاص ،
إذ يُجمع الرواة على أنه كان شديد المجاهدة لنفسه ، فكان يتقضى الليل مصلياً
والنهار صائماً ^(٤) .

ومن الصحابة الأولين الذين اشتهروا بالعبادة والزهد حذيفة بن اليمان ،
وأبو الدرداء الذي يُروى عنه في الزهد عبارات مأثورة من مثل قوله : « أضحكني
ثلاث وأبكاني ثلاث ، أضحكني مؤمل الدنيا والموت يطلبه ، وغافل ولا يُغفل
عنه ، وضاحك مِلء فيه ، ولا يتدري ساخط ربه أم راض . وأبكاني هول
المطَّلَع ، وانقطاع العمل ، وموقفي بين يدي الله لا يدري أيَّ أمرٍ بي إلى الجنة أم
إلى النار ^(٥) » وكذلك كان سالم مولى أبي حذيفة الذي يقول فيه عمر : « إن سالمًا
كان شديد الحب لله ^(٦) » .

(٤) ابن سعد ج ٤ ق ٢ ص ٩ وما بعدها .

(٥) بيان ١٥١/٣ .

(٦) بيان ١٥٠/٣ .

(١) البيان والتبيين ١٦٦/٣ .

(٢) نفس المصدر ١٤٩/٣ .

(٣) انظر ترجمته في طبقات ابن سعد

ج ٤ ق ١ ص ١٠٥ وما بعدها .

وشهرة أبي ذرّ الغفاري في هذا الباب ذائعة ، فقد ثار على معاوية ، وهو وال بالشام لعثمان بن عفان ، حين رآه يستأثر بالقسي^(١) ويبيح للناس ، تبعاً لسياسة عثمان ، أن يمتلكوا الضياع . وجادل معاوية في ذلك ، واحتج عليه بقوله تعالى : (والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) . واستمر في ثورته ، فرفع معاوية أمره إلى عثمان ، فرسم بإشخاصه إلى المدينة . فلما ذهب هناك ثار ثانية حين رأى بعض الصحابة يمتحنون الدور والقصور ، فنفاه عثمان إلى قرية مجاورة للمدينة تسمى الربدة . ويروي عنه أنه قال : « فارقت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوتى من الجمعة إلى الجمعة مُدَّ ، ولا والله لا أزداد عليه حتى ألقاه » ، وكان يقول : « إنما مالك لك ، أول للجائحة ، أو للوارث ، فاعنّ ، ولا تكن أعجز الثلاثة^(٢) » .

وعلى هذا النحو انتشرت موجة النسك في صدور كثير من الصحابة الذين رافقوا زاهد الأمة وعابدها الأول : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانتشر معها كثير من المجاهدات والرياضات ، وخاصة في الصوم والصلاة^(٣) : ووصف هذه الطائفة الحسنُ البصريُّ فقال : « أدركت من صدور هذه الأمة قوماً كانوا إذا جنّتهم الليل فقيامٌ على أطرافهم ، يفترشون وجوههم ، تجرى دموعهم على خدودهم ، يناجون مولاهم في فيكاك رقابهم^(٤) » : ولا ريب في أن هذه الطائفة هي مقدمة طوائف البسكّائين الذين نسمع بهم فيما بعد .

ولعل في ذلك كله ما يدل دلالة قاطعة على أن الزهد نشأ نشأة إسلامية خالصة ، فقد دعا إليه القرآن الكريم ودعت إليه السنة النبوية . على أننا لا نتقدم إلى عهد الفتوح حتى تدخل فيه عناصر أجنبية ، على رأسها عناصر مسيحية ، من تلك التي كانت في العراق والشام ومصر . وحركة الرهبنة في المسيحية وما يتصل بها من زهد معروفة ، وقد كان لها أثرها في هذه النزعة ، لا في وجودها ولا في تنشئتها ، ولكن في نموّها من بعض الوجوه .

(٣) بيان ١٥٦/٣ .

(٤) بيان ١٣٦/٣ .

(١) الزه : غنائم الحرب .

(٢) بيان ١٩١/٣ .

ولعل من الطريف أن نجد لعهد عثمان شخصاً يُحَرِّم الزواج واللحْم على نفسه ، وهو عامر بن عبد قيس ، زاهد البصرة وناسكها^(١) . ونهج نهجه في عهد عمر بن عبد العزيز ناسكُ المدينة المشهور زياد^(٢) بن أبي زياد أحد موالى بني مخزوم . وكان كثير من هؤلاء الزهاد يُلقَّب بالراهب لكثرة عبادته وصلاته^(٣) . وقد لُقِّب عبد الرحمن بن أبي عمَّار الجُشميَّ المكيُّ بالقَسَّ لعبادته ، وكثرة تبتهل إلى الله^(٤) .

واستمرت صور المجاهدات والرياضات للنفس في أشكال مختلفة ، فكان بعضهم يُكثر من الصلاة ، حتى ليصلى ألف ركعة في اليوم^(٥) ، واشتهر محمد بن طلحة ابن عبَّيْد الله بأنه كان يسجد فيُطيل في سجوده ، حتى إن العصافير لتسقط على ظهره تحسبه حائطاً^(٦) . وفي طبقات ابن سعد أن معضد بن يزيد العجليَّ أحد عبَّاد الكوفة كان يخرج في جماعة إلى الحبَّانة يتعبدون^(٧) . وكانت تزداد هذه المجاهدات حين يصنع بعضهم ذنباً يندم عليه ، فقد ارتكب أبو لُبَّابة معصية ، فربط نفسه إلى عمود في مسجد المدينة ، وبقي مدة على هذه الحال حتى ظنَّ أن الله غفر له^(٨) ، ويُرَوَّى عن الزُّهرى أن ذنباً فرط منه ، فهم على وجهه ، خوفاً من ربه^(٩) .

ومن المجاهدات التي نقرؤها كثيراً الحجُّ إلى مكة لا على الإبل ، وإنما مشياً على الأقدام ، ويُرَوَّى أن علي بن الحسين الملقَّب بزین العابدين حجَّ خمساً وعشرين حجَّةً راجلاً^(١٠) وعلى هذه الشاكلة أخذ الزهد يتحول في كثير من الصور إلى ضروب مختلفة من المشقة وتعذيب النفس وإعانتها طلباً لما عند الله من الثواب ، وخوفاً مما أعدَّه من العقاب .

وكل مَنْ يدرس هذه الموجة من الزهد ويتعقبها في الأقاليم الإسلامية في أثناء عصر بنى أمية يستطيع أن يلاحظ في وضوح أن أهم إقليم انتشرت فيه هذه الموجة هو

- | | |
|--|---|
| (١) أسد الغابة ٣ / ٨٨ . | (٦) الحيوان للجاحظ (طبعة الحلبي) ٥ / ٢٣٨ . |
| (٢) ابن سعد ٥ / ٢٢٥ . | (٧) ابن سعد ٦ / ١١١ . |
| (٣) ابن سعد ٥ / ١٥٣ وانظر ج ٧ ق ١ ص ٧٣ . | (٨) هذه الحادثة كانت على عهد الرسول ، انظر أسد الغابة ٥ / ٢٨٤ . |
| (٤) أغاني (طبع دار الكتب) ٨ / ٣٣٤ . | (٩) بيان ٣ / ١٦٨ . |
| (٥) أغاني ١ / ٢٧٧ والبيان والتبيين ٣ / ١٢٩ . | (١٠) المقدم الفريد ١ / ٣٦٦ . |

لإقليم العراق وقد تأثر فيها بعناصر أجنبية ، إذ نرى قَتَادَةَ أحدَ زهاده ينقل عن التوراة (١) كما نرى الشَّعْبِيَّ أحدَ عبَّادِه ينقل عن عيسى بن مريم عليه السلام (٢) وقد يكون ذلك لاتصال العراق بالرهينة المسيحية ، ومع ذلك فلم يكن أكثر صلة بها من الشام ومصر ، فلا بد من أسباب أخرى دفعت أهله إلى اعتناق هذا الزهد والمبالغة فيه . وأكبر الظن أن الحروب الداخلية الطويلة التي استمرت هناك طوال عصر بني أمية هي التي أعدت لذلك ، فإن بعض من خَسِرُوا هذه الحروب ولم يستطيعوا اقتناص الدنيا من أيدي الأمويين تحولوا إلى الزهد فيها ، ووضعوا أمانيتهم في الآخرة وما وعد الله به عباده المتقين . ولا ريب في أنه كان لظلم ولاية بني أمية وتعسفهم مع العراقيين أثر في ذلك ، ويكفي أن نعرف أن الحجاج قَتَلَ - فيما يقال - صَبْرًا وغيلة ، مائة ألف وعشرين (٣) . وغيره من ولاية العراق مثل خالد القَسْرِيَّ ويوسف بن عمر لم يبلغوا في القتل مبلغه ، ولكنهم كانوا أيضًا قساة ظالمين . ولم يكن لدى الناس أمام هذا الظلم وتلك القسوة وما استولى على نفوسهم من فزع وخوف إلا أن يعتصموا بحسبِ الله وينصرفوا عن متاع الدنيا إلى متاع الآخرة .

ومعنى ذلك أن عوامل مختلفة هيأت لاتساع موجة الزهد في العراق . وإن من يقرأ الجاحظ في بيانه وهو يعدد أسماء زهَّاد الكوفة والبصرة ويطنل في تعدد آدهم ويفتح الفصول الخاصة لذكرهم والنقل عنهم يُسَخِّيلُ إليه أن زهاد العصر الأموي كلهم كانوا منبئيين في العراق . ولا شك في أن الزهد كان له أصحابه في الحجاز ، كما كان له أصحابه في الشام ومصر ، ولكن العراق هي التي سبقت فيه للأسباب التي ذكرناها ، فقد اندفع كثيرون هناك إلى العبادة والنسك ، وعُرف جمهورهم باسم القُرَّاء . والكلمة أُخِذَتْ أولاً من قراءة القرآن ثم أصبحت تطلق على هؤلاء الذين أخلصوا أنفسهم لله ، فتقشفوا وتنسكوا وعاشوا معيشة زائغة ، بل معيشة تقوم على المجاهدة ورياضة النفس .

(٣) ابن عدي به ٢١١/٣ وانظر النظر، ١١٢٣/٢

(١) بيان ١٠٤/١ .

(٢) بيان ٢٩٧/١ .

ومن أشهر زهاد الكوفة^(١) علقمة بن قيس ويصفونه بأنه كان من الربانيين^(٢) وابن أخيه الأسود بن يزيد ، ويقولون إنه كان صَوَّامًا قَوَّامًا^(٣) ، وعمرو بن عُتْبَةَ ابن فَرْقَدٍ وكان من البسكائين^(٤) ، والربيع بن خُشَيْم ، ويقولون إنهم لم يسمعه يذكر شيئاً قط من الدنيا^(٥) ، وهمام بن الحارث النَّخَعِي وكان يقول : « اللهم اكفني من نومي ببسير ، واجعل سهري في طاعتك ، فكان لا ينام إلاَّ هُنَيْهَةً وهو قاعد^(٦) » وأويس القَرَظِي وكان من البسكائين ، وكان يتحرج أن يُحدِّث أو يَقْصُر أو يُفْتِي^(٧) .

ومن أشهر قراء البصرة ونُسَّاكها^(٨) صلة بن أَشِيَم ، وكان يصلي حتى لا يستطيع أن يأتي فراشه إلا زحفاً^(٩) ، ومُطَرَف بن عبد الله بن الشَّخِير ، وكان يقول لأهل البصرة : « لا تنظروا إلى خفض عيْشهم (بنى أمية) ولين لباسهم ، ولكن انظروا إلى سرعة ظعنهم ، وسوء منقلبهم^(١٠) » ومورق العَجَلِي ، وكان يقول : « ضاحك معترف بذنبه خير من باك مدلل على ربه^(١١) » ، وبكر بن عبد الله المَرْزُوقِي ، وكان يقول : « الدنيا ما مضى منها فحلم ، وما بقى منها فأما في^(١٢) » ، ويزيد بن أبان الرَّقَاشِي الواعظ البكَّاء ، ويُرْوَى أنه تمنى قوم في مجلسه ، وقالوا تمنَّ ، فقال : « ليتنا لم نُخلِّق ، وليتنا إذ متنا لم نبعث ، وليتنا إذ بُعثنا لم نحاسب ، وليتنا إذ حوسبنا لم نعدَّب ، وليتنا إذ عُدِّبنا لم نخلِّد^(١٣) » .

وواضح من أقوال هؤلاء الزهاد والنسك أنهم لم يملثوا أجواءهم بعبادتهم وتقشفهم فحسب ، بل ملأوها أيضاً بمواعظهم وإرشاداتهم وتوجيهاتهم . وقد اشتهر في المدينة أبو حازم الأعرج ومحمد بن كعب القُرَظِي واعظ عمر بن عبد العزيز ، واشتهر في العراق الشَّعْبِي واعظ الكوفة .

- | | |
|-----------------------------------|------------------------------|
| (١) انظر البيان ١/٣٦٣ ، ١٩٣/٣ . | (٢) البيان ١/٣٦٣ ، ١٩٣/٣ . |
| (٣) ابن سعد ٦/٦١ . | (٤) ابن سعد ٧/١ ص ٩٩ . |
| (٥) البيان ٣/١٥٩ . | (٦) البيان ٣/١٥٢ . |
| (٦) ابن سعد ٦/١٤٣ . | (٧) البيان ٣/١٥٨ . |
| (٧) ابن سعد ٦/١٢٧ . | (٨) البيان ٣/١٥٢ . |
| (٨) ابن سعد ٦/٨١ . | (٩) البيان ٣/١٥٩ . |
| (٩) ابن سعد ٦/١١٤ . | |

وواعظ العراق غير مدافع الحسن البصرى ، ومواعظه منشورة في البيان والتبيين ، وكلها تستعنى على ابن آدم نسيانه لربه وآخرفته ، وما أعدَّ له الله من ثواب وعقاب . ويحسُّ الإنسان في مواعظه دائماً بالرجفة والفرع من العذاب ، وكأنه يرى بعينه الجحيم ، وهو يخلط ذلك بالدعوة إلى الزهد في حطام الدنيا ، والتقرب إلى الله بالعبادة والنسك والحجة . ويروى عنه أنه كان يقول : « ليس الإيمان بالتحلّي ولا التمنى ، ولكن ما وقّر في القلوب وصدّقته الأعمال ^(١) » . ومن قوله أيضاً : « مثقال ذرة من الورع خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة ^(٢) » .

ويظهر من نصوص هذا العصر أن فريقاً من زهاده كانوا يلبسون الملابس الخشنة وخاصة الصوف ^(٣) وكان ذلك لا يعجب الحسن ، فكان يقول : « أكنوا الكبر في قلوبهم ، وأظهروا التواضع في لباسهم ^(٤) » . وكان يقرأ القرآن ويبكى حتى يتحدّر الدمع على لحيته ^(٥) .

ولم تقف هذه الموجة عند الرجال بل تعدّتهم إلى النساء ، وقد عدّ منهم الجاحظ رابعة القيسية ، ومُعَاذَة العدوية امرأة صليّة بن أشيم ، ومن نساء الخوارج البلجاء وغزّالة وقطام وحمّادة وكحسيلة ، ومن نساء الغالية ليلي الناعظية وصدوف وهند ^(٦) .

وإنما استطرّدنا كل هذا الاستطراد في بيان هذه الموجة الدينية من الزهد والتقشف والنسك والتعبد ، لننلّ في وضوح على أن شعراء عصر بني أمية نبّتوا في جو جديد فيه روحية ومثالية ، وفيه إيمان بعالم آخر فوق حِسّهم وشعورهم ، وأن هناك علة نهائية تُدبّر هذا الكون ، وتعنّو لها وجوه البشر ورقابهم .

وهذا كله طبّع نفسية كثير من الشعراء في العصر الأموي بطوايع جديدة لم تكن مألوفة في العصر الجاهلي ، عصر الوثنية ، لسبب بسيط وهو أن الشعر تعبير

(١) البيان ١٤٤/٣ .

(٢) رسالة القشيري (طبع مصر سنة ١٣١٩هـ)

(٤) ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ١٢٣ .

(٥) نفس المصدر ص ١٢٧ .

(٦) البيان ١/٣٦٤ .

ص ٥٩ .

(٣) ابن سعد ٨/٣٤٨ وكذلك ج ٤ ق ١

النفس ، وهو يتأثر بكل ما يؤثر في النفس من ظروف طبيعية : مادية ، أو روحية معنوية .

فالشعر الأُموي كُتِبَ في ظلال نفسية جديدة آمنت بربها ، واستشعرت حياة تقيّة صالحة ، فيها نسك وعبادة ، وفيها تقوى وزهد . وليس معنى ذلك أن كل الشعراء كانوا ناسكين زاهدين ، وإنما معناه أن الحياة الروحية الجديدة لم تنفصل عن حياتهم الفنية ، بل أثرت في كثير من جوانبها وطوّرتها ، وظهر هذا التطور في صور مختلفة . ويكفي أن نتصفح ديوان شاعر كالفرزدق الذي اشتهر بفسقه واستهتاره لنعرف أنه لم ينفصل من الإسلام وأنه تأثر به ، فقد حضر هو والحسن البصري جنازة زوجه النّوّار ، فقال له الحسن وهو يلزاء القبر : « ماذا أعددت لهذا المضجع ؟ قال شهادة أن لا إله إلا الله منذ ثمانين سنة ، فقال له الحسن هذا العمود فأين الطُّنْب ؟ فقال في الحال :

أخافُ وراء القبر إن لم يُعافى أشدّ من القبر التهاباً وأضيقاً
إذا جاعنى يوم القيامة قائدٌ عَنِيفٌ وَسَوَاقٌ يسوق الفرزدقا
لقد خاب من أولاد دارم^(١) من مشى إلى النار مغلول القلادة مُموتقا
يُقَاد إلى نار الجحيم مُسْتَرِبَلًا سراييلَ قِطْرانٍ لباساً محرّقا^(٢) »

فالفرزدق المستهتر لم يكن الإسلام بعيداً عن نفسه ، بل كان يعمل في سريره . وسرى جين تدرس مدائح أنه كان يمدح بعناصر إسلامية كثيرة ، ويروى أنه قيّد نفسه ، وآلى أن لا ينزع القيد من رجله حتى يحفظ القرآن^(٣) . ولعل من الطريف أن نجد في ديوانه قصيدة يهجو فيها إبليس ، ومن قوله فيها^(٤) :

ألم ترني عاهدتُ ربي وإلاني لبين رتاجٍ قائما ومقامِ
على قسمٍ لا أشتم الدهرَ مسلماً ولا خارجاً من فيّ سوءُ كلامِ
أطعمتك يا إبليس سبعين حجةً فلدا انتهى شَيْبِي وتمّ تَمَاي

(١) هم قومه من تميم .

(٢) ديوان الفرزدق (طبعة الصاوي) ص

(٣) أمالي المرتضى ١/٦٣ .

(٤) الديوان ص ٧٦٩ .

٥٧٧ ، وانظر أمالي المرتضى (طبع مطبعة

مُفْلِقِ لِأَيْتَامِ الدَّسْتُونَ حِمَامَى
 أَبُو الْجَيْنِ لِبَلِيسٍ بِغَيْرِ خِطَامِ
 يَكُونُ وَرَائِي مَرَّةً وَأَمَامِي
 سَيِّخْلِدُنِي فِي جَنَّةٍ وَسَلَامِ
 يَمِينُكَ مِنْ خُضْرِ الْبَحُورِ طَوَامِ (١)
 كَفَرَفَةَ طَوْدَى يَتَذَبَّلُ وَشَمَامِ
 نَكَصْتُ وَلَمْ تَحْتَمِلْ لَهُ بِمَرَامِ
 بِأَنْعَمِ عَيْشٍ فِي بِيوتِ رُخَامِ (٢)
 لَكُمْ أَوْ تُنْبِئُوهَا لِقُوحِ غَرَامِ
 وَكُنْتَ نَكْبُوصًا عِنْدَ كُلِّ ذِمَامِ
 وَزَوْجَتَهُ مِنْ خَيْرِ دَارِ مُقَامِ
 أَحَادِيثَ كَانُوا فِي ظِلَالِ غَمَامِ
 رِضَاهُ وَلَا يَقْتَادُنِي بِزِمَامِ
 إِلَيْهِ جَرُوحًا فَيْكِ ذَاتِ كِلَامِ

فَرَرْتُ إِلَى رَبِّي وَأَيْقَنْتُ أَنِّي
 أَلَا طَالَمَا قَدْ بَتُّ يُوَضِّعُ نَاقِي
 يَظَلُّ يَمْنِينِي عَلَى الرَّحْلِ فَارِكًا
 يَيْشُرُنِي أَنْ لَنْ أَمُوتَ وَأَنَّهُ
 فَقَلْتُ لَهُ هَلَاءُ أُخَيِّتُكَ أَخْرَجْتُ
 رَمِيْتَ بِهِ فِي الِیَمِّ لَمَّا رَأَيْتَهُ
 فَلَمَّا تَلَقَى فَوْقَهُ الْمَوْجُ طَامِيًا
 أَلَمْ تَأْتِ أَهْلَ النَّحِجْرِ ، وَالْحَجْرُ أَهْلُهُ
 فَقَلْتُ : اعْقِرُوا هَذِي اللَّقُوحَ فَإِنَّهَا
 فَلَمَّا أَنَاخُوهَا تَبَرَّاتٍ مِنْهُمْ
 وَآدَمَ قَدْ أَخْرَجْتَهُ وَهُوَ سَاكِنٌ
 وَكَمْ مِنْ قُرُونٍ قَدْ أَطَاعُوكَ أَصْبِحُوا
 وَمَا أَنْتَ يَا إِبْلِيسُ بِالْمَرْءِ أَبْتغِي
 سَاجِزِيكَ مِنْ سَوَاتٍ مَا كُنْتُ سُقْتِي

وعلى هذا النمط يسترسل الفرزدق في هجاء إبليس معبراً عن نزعة دينية كانت
 تشتمل عليها نفسه ، ومستعيراً من القرآن الكريم بعض قصصه ليُحْكَمَ هذا الهجاء .

وبما من ريب في أننا كلما أنعمنا النظر في ديوان شاعر أموى وجدنا هذا الجانب
 الديني الجديد في صور مختلفة . وإذا كان الفرزدق على استهتاره ، الذي شهيره ،
 يتأثر هذا التأثير بالإسلام في شعره فأولى بغيره أن يكون تأثرهم أعمق وأحد ، وخاصة
 من عرفوا بالعفاف والتدين ، فخصمه جرير التقي العفيف نجد في شعره مظاهر
 كثيرة لتدينه وعفته ستعرض لها في غير هذا الموضوع ، ويروى عنه أنه كان
 يبكي حين تمرُّ به الجنائز ، ويقول : « أحرقتني هذه الجنائز » وله ، في زوجه
 أم حنزة ، رثاء مشهور ، يقول فيه (٣) :

(٢) الحجر : ديار ثمود .
 (٣) ديوان جرير (طبعة الصاوي) ص ٢٠١

(١) لعله يشير إلى قصة فرعون وقرنه المشهورة
 في القرآن الكريم أو لعله يشير إلى قصة ابن نوح
 التي وردت في سورة هود ، آية ٤٣ وما بعدها .

صَلَّى الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ تُخَيِّرُوا وَالطَّيِّبُونَ عَلَيْكَ وَالْأَبْرَارُ

وسرى حين نعرض لمذاتحه أنها كانت تستمد من العناصر الإسلامية ، وكذلك كانت أهاجيه مع الأخطل المسيحي ، ومع الفرزدق الذي يرميه دائماً بالفسق والحجون .

ومعنى ذلك أن الحياة الدينية طَوَّرَت الشعر الأُموي وأثرت أثراً عميقاً في نفوس الشعراء ، وأصبح من غير الممكن أن ينظموا شعراً لا تتضح فيه عناصر هذه الحياة ، ومن أهم ما كان من ذلك أنهم أصبحوا لا يمدحون أحداً ولا يهجون أحداً إلا وضعوا الصفات الدينية إيجاباً وسلباً في مديحهم وهجائهم . واستمع إلى كثير يمدح عمر عبدالعزيز^(١) :

وَصَدَقْتَ بِالْفِعْلِ الْمَقَالَ مَعَ الَّذِي	أَتَيْتَ فَأَمْسَى رَاضِيًا كُلِّ مُسْلِمٍ
وَقَدْ لَبِسْتَ لِبَسَ الْهَلْكَوكِ ثِيَابَهَا	تَرَاءَى لَكَ الدُّنْيَا بِكَفٍّ وَمِعْنَمٍ
وَتَوَضَّأُ أَحْيَانًا بَعِينَ مَرِيضَةً	وَتَبَسِّمُ عَنْ مِثْلِ الْجُمَانِ الْمُنْتَظَمِ
فَأَعْرَضْتَ عَنْهَا مَشْمُزًا كَأَنَّمَا	سَقَّتْكَ مَدُوقًا مِنْ سِيمَامٍ وَعَلَقَمِ
تَرَكْتَ الَّذِي يَتَّقَنِي وَإِنْ كَانَ مُؤْنِقًا	وَأَثَرْتُ مَا يَبْقَى بِرَأْيِ مَصْمَمٍ
وَأَضْرَرْتَ بِالْفَانِي وَشَمَّرْتَ لِلَّذِي	أَمَامَكَ فِي يَوْمٍ مِنَ الشَّرِّ مُظْلَمِ

فهو يمدح عمر بانصرافه عن الدنيا مع تعرضها له ، ويقول إنه زاهد في ملذاتها وثمارها الفانية ، لأنه يريد الثمرة الباقية من ربه ، يريد رضوانه وفردوسه . وغير الخلفاء من الولاة والعمال كان الشعراء يمدحونهم أيضاً بهذه العناصر الدينية وما يشبهها من مثل قول ابن قيس الرقيسات في مصعب بن الزبير والى العراق لأخيه عبد الله^(٢) :

إِنَّمَا مُضْعَبٌ شَهَابٌ مِنَ اللَّاحِ	ه تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلْمَاءُ
مَلِكُهُ مَلِكٌ قُوَّةٍ لَيْسَ فِيهِ	جَبْرُوتٌ وَلَا بِهِ كِبْرِيَاءُ

(٢) ديوان ابن قيس (طبع بيروت) ص ٩١ .

(١) ديوان كثير (طبع الجزائر) ١٢٣/٢ .

يَتَّقِي اللهُ فِي الْأُمُورِ وَقَدْ أَوْ لَحَ مِنْ كَانَ هَمَّهُ الْإِتْقَاءُ
فَهُوَ يَجْعَلُ مَصْعَبًا قَبَسًا مِنْ نُورِ اللهِ ، وَيَقُولُ إِنَّهُ مُسْلِمٌ أَشَدُّ مَا يَكُونُ الْإِسْلَامُ
فَفِيهِ تَقْوَى وَصَلَحٌ ، وَحِكْمَةٌ فِيهِ تَوَاضَعٌ وَإِتْقَادٌ لِلَّهِ .

وَبَصُورَةٌ مُبَايِنَةٌ لِهَذِهِ الصُّورَةِ الدِّينِيَّةِ كَانَ الشُّعْرَاءُ يَتَهَاجَرُونَ وَيَهْجُونَ النَّاسَ ، إِذْ
كَانَ الْهَجَاءُ بِاللَّذِينَ أَقْدَعَ صُورَ الْهَجَاءِ ، وَاسْتَمَعَ إِلَى قَوْلِ الطَّرِيْمَاحِ يَهْجُو تَسِيمًا
وَيَنْصُرُ قَوْمَهُ الْأَزْدَ (١) :

لَوْحَانٌ وَرِدُّ تَسِيمٍ ثُمَّ قِيلَ لَهَا حَوْضُ الرُّسُولِ عَلَيْهِ الْأَزْدُ لَمْ تَرِدِ
أَوْ أَنْزَلَ اللهُ وَحْيًا أَنْ يُعَدَّ بِهَا إِنْ لَمْ تَعُدِّ لِقِتَالِ الْأَزْدِ لَمْ تَعُدِّ

فَهُوَ يَقُولُ إِنْ تَسِيمًا تَهَلَّعَ مِنَ الْأَزْدِ ، حَتَّى لَوْ كَانَ لَهَا وَرِدٌ إِلَى الْمَاءِ ،
وَعَلِمَتْ أَنَّهَا تَرِدُ عَلَى حَوْضِ الرُّسُولِ ، ثُمَّ عَرَفَتْ أَنَّ هُنَاكَ الْأَزْدَ لَرَجَعَتْ إِلَى نَفْسِهَا ،
يَقُودُهَا الْخَوْفُ وَالْفَزَعُ ، وَأَقَامَتْ عَلَى الْعَطَشِ وَالظَّمْأِ . وَهُوَ بِذَلِكَ يَرْمِيهَا بِالْجَبْنِ وَضَعْفِ
الْإِيمَانِ بِالْإِسْلَامِ وَصَاحِبِ رِسَالَتِهِ . ثُمَّ عَادَ فَذَكَرَ هَذَا الْفَزَعُ فِي صُورَةٍ
أُخْرَى ، فَلَوْ أَنَّ وَحْيًا نَزَلَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَفِيهِ بِأَمْرٍ تَسِيمًا بِقِتَالِ الْأَزْدِ بَعْدَ
نُكُوصِهَا ، وَأَنَّهَا إِنْ لَمْ تَفْعَلْ حَقَّ عَلَيْهَا الْعَذَابُ ، لَوْ أَنَّ ذَلِكَ حَدَثَ مَا عَادَتْ إِلَى
هَذَا الْقِتَالِ .

وَعَلَى نَحْوِ مَا أَثَّرَ الْإِسْلَامُ فِي الْمَدِيحِ وَالْمُهْجَاءِ أَثَرَ فِي الْغَزْلِ ، بَلْ لَعَلَّ تَأْثِيرَهُ
فِيهِ كَانَ أَوْسَعَ ، فَقَدْ ظَهَرَ فِي نَجْدٍ ضَرِبَ جَدِيدٍ مِنَ الْغَزْلِ الْعَذْرَى الطَّاهِرِ الْعَقِيفِ ،
كَمَا تَسَرَّبَتْ إِلَى نَفُوسِ أَصْحَابِهِ فِي نَجْدٍ وَغَيْرِ نَجْدٍ غَيْرِ قَلِيلٍ مِنَ الْمَشَاعِرِ الدِّينِيَّةِ
لَا مِنْ حَيْثُ تَصْفِيَةِ النُّفُوسِ مِنْ أَدْرَانِهَا ، بَلْ أَيْضًا مِنْ حَيْثُ الْأَلْفَاظِ وَالْأَسَالِيبِ ،
فَقَدْ أَخَذُوا بِسُتُورِ بَعْضِ الْمَعَانِي وَالْأَلْفَاظِ الْإِسْلَامِيَّةِ كَمَا يُوَثِّرُونَ فِي قُلُوبِ مَنْ
يُحِبُّونَهُمْ ، مِنْ مِثْلِ قَتْلِ النَّفْسِ الْحَرَمَةِ وَمِثْلِ الذَّنْبِ وَالظُّلْمِ وَالغُفْرَانِ ، يَقُولُ ابْنُ
أَبِي رَيْبَعَةَ (٢) :

(١) ديوان الطرماح (نشر مركز تكو) ص ١٤٥ . (٢) انظر الديوان ، القصيدة رقم ٣٤٣ .

ألا يا مَنْ أَحَبُّ بِكُلِّ نَفْسِي
ومن يظلمُ فأغفره جميعاً
ومَنْ هُوَ من جميع الناسِ حَسْبِي
ومن هُوَ لا يهَمُّ بَغْفَرِ ذَنْبِي

ويقول جميل^(١):

ألا تتقين الله فيمن قتلته
ويقول كثير^(٢):

ولا تياساً أن يمحو الله عنكما
ذنباً إذا صليتما حيث صلت

ويقول مجنون ليلي^(٣):

عفا الله عن ليلي الغداة فإنها
إذا وكيت حكماً على تجور

وتكثر مثل هذه الألفاظ عند الغزلين جميعاً

وعلى هذا النمط تطورت جوانب كثيرة من صور المديح والهجاء والغزل القديمة تحت تأثير الروحية الإسلامية الجديدة . وسرى حين نعرض للحياة السياسية أن شعراء الأحزاب المختلفة كانوا يهتمون اهتماماً شديداً في مدائحهم وأهاجيهم بالعناصر الدينية ، وهذا كله طبيعي فقد تغيرت نفسية القوم تحت تأثير الإسلام وتغيّر مثلهم الأعلى في الفضائل والأخلاق ، وكان النساك والوعاظ ما يزالون يؤثرون فيهم وفي نفسياتهم . ولذلك كنا لا نبالغ إذا زعمنا أن كثيراً من صفحات الشعر الأموي طبع بطابع ديني ، واستمع إلى قول الطيرماتح^(٤):

كلُّ حَيٍّ مُسْتَكْمِلٌ عِدَّةَ الْعُمِّ
عَجَبًا مَا عَجِبْتُ لِلْجَامِعِ الْمَا
وَيُضْبِعُ الَّذِي يَصِيْرُهُ اللَّ
يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الْخَوَلَّ ذَا الثَّر
يَوْمَ يُؤْتَى بِهِ وَخَصْبَاهُ وَسَطُ الْ
رِ وَمَوَدُّ إِذَا انْقَضَى عَدَدُهُ
لَ يَبْأَهِي بِهِ وَيَسْرَتَقِدُهُ
هُ إِلَيْهِ فَلَيْسَ يَعْتَقِدُهُ
وَهُ خُلَانَتُهُ وَلَا وِلْدَهُ
جَنِّ وَالْإِنْسِ رَجُلُهُ وَيَدُهُ

(٣) الأغاني (طبع دارالكتب المصرية) ٧٥/٢ .

(٤) ديوان الطرماتح ص ١١٢ .

(١) انظر ديوان جميل (نشر مكتبة مصر) ص ١١٧ .

(٢) ديوان كثير ، القصيدة رقم ٤ .

خاشع الصوت ليس ينفعه ثم مَّ أمانئُه ولا لَدُدُه
 قل لباكي الأموات لا يَبْسُكُ لنا س ولا يَسْتَنْعِ (١) به فَتَنَدُه
 إنما الناسُ مثلُ نابتةِ الزَّرِّ ع متى يَأْنِ (٢) يَأْتِ مُحْتَصِدُه

وهذه الأبيات أشبه ما تكون بموعظة من مواعظ الحسن البصرى ، فهي تستمد من القرآن الكريم ، وما يتردد فيه من أن الناس لهم أجل محتوم (لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) وإلزامهم (لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم) (يوم لا ينفع مال ولا بنون) (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) يوم يأتي الظالمون الذين خرجوا عن جادة الدين مصفدين ، لا تنفعهم أمانئهم ، ولا ما كانوا يجادلون به عن أنفسهم ، ولا ما اختزنوه من أموالهم ، كأنما غرَّهم بالله الغرور . وهذه كلها صور مبثوثة في القرآن الكريم وكان الوعاظ يُسَدُّون فيها ويُعيِّدون ، والطرماع يتبعهم ، فينسجها شعراً زاجراً الأغنياء الذين يكتزون الذهب والفضة قائلين لهم : إنهم لن يفلحوا أبداً ، فإنهم يُضَيِّعُونَ ما أعطاهم الله من فضله ، فلا ينفقونه في وجهه الديني من الصدقات ، يحسبون ذلك خيراً لهم (بل هو شرٌّ لهم سَيُطَوَّقُونَ ما بخلوا به يوم القيامة) . وإنه ليُنهي الأبيات بفكرة الموت التي تتردد في الذكر الحكيم كثيراً من مثل قوله تعالى (كل نفس ذائقة الموت) (وإنك ميتٌ وإنهم ميتون) . وفي كل مكان من شعر الشعراء نجد فكرة الموت وأن أحداً لا يخلد ، فالحياة الباقية هي الحياة الآخرة ، أما هذه الحياة الدنيا فلا ينبغي لأحد أن يتمسك بها لأنها فانية ، واستمع إلى هذا الشعر لقطري بن الفُجاءة (٣) .

أقولُ لها وقد طارت شِعاعاً من الأبطال ويحك لن تُراعى
 فإنك لو سألت بقاء يومٍ على الأجل الذي لك لن تُطاعى
 فصبراً في مجال الموت صبراً فما نيلُ الخلود بمستطاع
 ولا ثوبُ البقاء بثوبٍ عزيزٍ فيُطوى عن أخى الخنع البراع (٤)

(٣) ديوان الحماسة لأبي تمام (طبع صبيح) ١/٢٣٢ .

(٤) الخنع : الذل ، البراع : الجبان .

(١) يستمع : يتأدى ، والفند : الحق .

(٢) يَأْنِ : يبيغ .

سبيلُ الموتِ غايةُ كلِّ حِيٍّ فداعيته لأهل الأرض داعي

وواضح أن هذا الشعر الحماسي مطبوعٌ بطابع ديني لا نعرفه في الحماسة الجاهلية ، ففيه إيمان عميق بأن الدنيا زائلة ، وأن لا شيء باق على وجهها ، وأنه قد كتِّبَ لكل شخص أجل معلوم ، لا ينقص ولا يزيد .

وطبيعي أن هؤلاء الشعراء الأمويين الذين حفظوا القرآن الكريم وكانوا يتلونه كل يوم في صلاتهم ، ومن حولهم الوُعَاظُ والقُصَّاصُ يعظونهم ، ويوجهونهم إلى ربهم ، ويلقون الفزع في قلوبهم من عذابه وعقابه ، لا بد أن يتأثروا بذلك في نفسيتهم وفي شعرهم على نحو ما نرى الآن عند الطرماح وقطرى ، وكما يترأى عند وضَّاح اليمن في قوله^(١) :

صَلِّ لَدَى العَرْشِ واتخذ قَدَمًا تُنْجِيكَ يَوْمَ العِثَارِ والزَّلَّلِ

وكان من هؤلاء الشعراء مَنْ يتصلون مباشرةً بالدين ، إذ كان منهم الفقهاء والوعاظ ، مثل عرووة بن أذينة فقيه المدينة الذي يقول في بعض شعره^(٢) :

نُرَاعُ إِذَا الجَنَائِزُ قابِلَتُنَا وَبِحَزْنِنَا بَكَاءُ البَاكِيَاتِ
كِرْوَعَةٍ ثَلَاثَةٍ لِمَغَارِ سَبْعٍ فَلَمَّا غَابَ عَادَتْ رَاتِعَاتِ

وواضح أن عروة يؤثِّب هؤلاء الذين يُرَاعون عند الموت ، ثم يلهون ويلعبون ، كأنهم لا يعقلون ولا يحسبون .

وهناك فكرة تكررت كثيراً في بيئات الزهاد والنسّاك، وعبّروا عنها في صور مختلفة ، وهي تقوم على عدم التفكير في رزق غد ، لأن ذلك يكون معناه عدم التوكل على الله ، وفي الحديث الشريف « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خِصاصاً وتروح بِطَاناً » وقد تتابع النسّاك يابون التفكير في الغد والرزق الآجل ، حتى ليقول سفيان بن عيينة : « فكرك في رزق غد يكتسب عليك خطيئة^(٣) » . ويروى عن مسروق بن الأجدع أحد زهاد الكوفة ووعاظها

(١) أغاني (طبع دار الكتب ٢٩٩/٦ . (٢) تذكرة الحفاظ للذهبي (طبع حيدرآباد) ٨/٣ .

(٢) البيان ٢٠١/٣ والحياوان ٥٠٧/٦ .

أن زوجه قالت له يوماً : « ما أصبح لعيالك اليوم رزقٌ ، فتبسم وقال :
« والله ليأتينهم الله برزق^(١) » ، وكان أويُس القَرَني يقول : « إن معرفة المؤمن
بحقوق الله لم تُسبِق له فضة ولا ذهباً^(٢) » . فكانوا يستنكفون أن يجمعوا مالا^٣
أو يفكروا في أجل رزقهم ، وصوّر ذلك كله شعراً بديعاً عروةُ بن أذينة ،
إذ يقول^(٤) :

لقد علمت وما الإشراف من خلقي أن الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى له فيُعَسِّنِي تَطْلُبُهُ ولو قعدتُ أتاني لا يُعَسِّنِي
كم قد أفدتُ وكم أتلفت من نَشَب ومن معاريض رزقي غير مَمْنون
فا أشرتُ على يُسْرِ وما ضَرَعَت نفسي لخلَّة عَسْرٍ جاء يَبْسِلوني^(٤)
خيمي كريمٌ ونفسي لا تحدثنِي أن الإله بلا رزقي يخلِّيني

فهو يعبرُ في وضوح عن فكرة التوكل على الله التي شاعت في بيئة الزهاد وما
يتصل بها من الثقة بالله وطمأنينة النفس وقناعتها ، وترك كل تصرف لقضاء الله ،
وهو لا يهتم بعُسْر ولا يُسْر ، ولا يفكر في همَّ الرزق أو في همَّ الغد ، بل يدع تدبير
ذلك لصاحب التدبير . وقد تناقش ، في هذا العصر ، مالك بن دينار فقيه البصرة
ومحمد بن وسيع الأزدي أحد نساكها في السعادة ، وهل تكون في زرع قطعة من
الأرض والعيش من غلتها أو تكون في غير ذلك ؟ وذهب ابن وسيع إلى أن
السعيد هو الذي يُفْطِر في الصباح ولا يدرى ما يكون عشاؤه ، وأيضاً ذلك الذي
يجد عشاؤه ولا يدرى ما يكون أكله في الصباح^(٥) .

وكان الشعر في عصر بني أمية يستجيب لهذا كله وما شاع من وعظ الوعاظ
وأقوال النساك ، وأنت لا تكاد تجد شاعراً إلا وقد أخذ في شعره من هذه الحياة
بمخظ يختلف قوة وضعفاً ، وحسب نفسيته وصلتها بالإسلام . ولعل من الطريف
أن نعرف أن بعض الرُّجَّاز رأى أن يستهل بعض ما ينشئ من أراجيز بالحمد والثناء

(٤) أشرت : بطرت . ضرعت : ذلت .

(١) ابن سعد ٥٣/٦ .

(٢) ابن سعد ١١٤/٦ .

(٣) أمالي المرتضى ٤٠٩/١ وأغانى ١٠٦/٢١ .

(٥) العقيدة والشريعة في الإسلام لجولدسيهر
(طبع دار الكاتب المصري) ص ١٣٥ .

والإشراف في البيت الأول : التطلع إلى ما فات من
أمر الدنيا ومكاسبها .

على الله بدلاً من الوقوف القديم بالأطلال والبكاء على الديار ، فأبو النجّمْ العجلى
يبتدى أشهر أراجيزه بقوله : (الحمد لله الوهوب المُجْزِل) بينما يبتدى العجّاج أهم
أراجيزه بقوله : (قد جبر الدين الإلهُ فجبر) ، وفي ديوانه أرجوزة يفتتحها
بقوله (١) :

الحمد لله الذى استقلّتِ بإذنه السماءُ واطمأنّتِ

ويستمر ، فيتحدث عن خلق السموات والأرض ، وما يكون من البعث
والنشور ، ويتحول إلى ما يشبه الواعظ . وكثيراً ما يعتربه هذا التحول في شعره
وأراجيزه ، وهو تحول لا ترتاب في أنه كان أثر هذا الوعظ الدينى ، الذى كان
يستمع إليه الشعراء في العراق .

ومن طريف ما يلاحظ في هذا الجانب أنه ظهرت في الشعر أدعية وابتهالات
على نحو ما نجد عند الزهاد والנסاك ، وهي أدعية وابتهالات فيها فزعٌ من
عذاب الله وعقابه ، وسكونٌ إلى رحمته ومغفرته ، من مثل قول ذى الرُّمّة (٢) :

ياربِّ قد أشرقتْ نفسى وقد علمتْ علماً يقيناً لقد أحصيتْ آثارى
يا مخرجَ الروح من جسمى إذا احتضرتْ وفارجَ الكرب زحزحى عن النار

ويتملى ديوان ذى الرُّمّة بعناصر إسلامية كثيرة من ذكر الصلاة وتقصيرها
في السفر ، وما يكون من التيسيم وتلاوة القرآن في السحر وأثناء الليل ، من مثل
قوله (٣) :

إذا انجلى البرقُ عنه قام مبتهلاً لله يستلوه له بالنجّمْ والطورِ

وأكبر الظن أن فيما قدمنا من هذا كله ما يدل أوضح الدلالة على أن الشعر في
عصر بني أمية تطور بتطور الحياة الدينية ، فقد كانت هذه الحياة في مستقر نفوس
الشعراء وأوعية أوهامهم وأحلامهم ، فانطلق كثيرون منهم يذيعون ذلك في شعرهم ،
حتى لتتحول قطع من نظمهم إلى عظات ، وابتهالات دينية .

ص ٦٦٧ .
(٣) نفس المصدر ص ٢٨١ .

(١) ديوان العجّاج (طبع لبيسك) ص ٥ .
(٢) ديوان ذى الرمة (طبعة كبريدج)

الحياة العقلية

كان الإسلام سبباً في أن خرج العرب من طور البداوة إلى طور الحضارة ، ومعروف أن الأمم في الدور الأول لا تحقق لنفسها نهضة فكرية ، فحياتها العقلية لا تزال تحُدُّها أسوار السذاجة والطفولة . وقد نقل الإسلام العرب نقلة كبيرة ، فقد استولى فيما استولى عليه عند الأمم المفتوحة على جميع تراثها العقلي الذي تحدثنا عنه في الفصل السابق ، فإلى عَشِيَّةٍ أو ضُحَاهَا ، حتى أخذت سيول الثقافات الأجنبية التي كانت ماثرة في العراق والشام ومصر تنحدر إلى مجرى النهر العربي وتحدث تطوراً هائلاً في حياة العرب العقلية .

وكان من آثار ذلك أن انبثقت في هذا العصر حركات تعليمية كثيرة ، على رأسها الحركة الدينية التي عُنيت بتفسير القرآن الكريم ورواية الحديث الشريف ، كما عُنيت بوضع قواعد الفقه الإسلامي الذي لم يقف به أصحابه عند أمور العبادات الدينية ، بل وسَّعوه حتى شمل كل فروع الحياة المدنية والسياسية . وكانت الأصول التي تُسْتَمَدُّ منها قواعد هذا الفقه هي القرآن والحديث وإجماع المسلمين ثم القياس . ومعنى ذلك أن الاستنتاج والرأي الشخصي احتُرِّما في الفقه الإسلامي منذ أول الأمر ، يشهد لذلك ما رُوِيَ عن الحسن البصري من أن شخصاً سأله عن بعض فتاويه : أبرأيه أم سمعها ، فقال : « لا والله ما كلَّ ما نُفِيتي به سمعناه^(١) » .

وقد أخذت تُؤَسَّسُ في كل بلدة كبيرة مدرسة فقهية ، فكان في مكة عِكْرَمَة ، وعَطَاءُ وابن أبي مَلِيكَة . وفي المدينة سالم ، ونافع ، وعبيد الله بن عبد الله بن عَتْبَة ، وعُرْوَة بن الزُّبَيْر ، والزهري . وفي اليمن وهب ابن مُنْبَهة وظاؤوس . وفي مصر الصَّابِحِي ، وأبو تميم ، ويزيد بن عبد الله البربري . وفي الشام

(١) ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ١٢٠ .

شَهْرُ بْنُ حَوْشَبٍ ، وَرَجَاءُ بْنُ حَيَّوَةَ الْكِنْدِيُّ ، وَهَانِيُّ بْنُ كَلْثُومٍ ، وَمَكْحُولُ
وَالْأَوْزَاعِيُّ . وَفِي خِرَاسَانَ عَطَاءُ بْنُ مُسْلِمٍ وَالضُّحَاكُ بْنُ مُزَاحِمٍ . وَفِي الْكُوفَةِ النَّخَعِيُّ
وَالشَّعْبِيُّ ، وَشَرِيحُ بْنُ الْحَارِثِ الْقَاضِي ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ . وَفِي الْبَصْرَةِ الْحَسَنُ
وَإِبْنُ سَيْرِينَ ، وَقَتَادَةُ ، وَإِيَّاسُ بْنُ مَعَاوِيَةَ ، وَمَالِكُ بْنُ دِينَارٍ ، وَأَيُّوبُ السُّخْتِيَانِيُّ .
وهؤلاء الفقهاء من عرب وموال أخذوا يُشَرِّعُونَ للناس أمور دينهم وديناهم .
وكان للأخذ بأصل القياس في الفتوى أثر واسع في اختلافهم في مسائل كثيرة .
واشتهرت بيئة الحجاز بغلبة الحديث عليها ، كما اشتهرت بيئة العراق بغلبة
القياس ، ولذلك نبغ منهم من سحوا أهل الرأي (١) . واختلافات كثيرة
قامت بين البيئتين في الأحكام والآراء ، إلا أن ذلك لم يُحَدِّثْ حَرَجًا ، فقد
رَوَى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اختلاف أمتي رحمة » وعن يحيى
ابن سعيد : « أهل العلم أهل توسعة ، وما يَسْرِحُ الْمُفْتُونَ يَخْتَلِفُونَ ، فَيُحْتَلَلُ
هذا وَيُسْحَرَمُ هذا ، فلا يعيب هذا على هذا ، ولا هذا على هذا (٢) » .

وكان هذا الاختلاف مَحْكَمًا للعقول وَمَشْحَدَةً للأفكار ، فكان هؤلاء
الفقهاء وتلاميذهم يبحثون في وجوه وأسبابه ، حتى بلغ من أيوب السُّخْتِيَانِيُّ أن
قال : « لا يعرف الرجل خطأ معلمه حتى يسمع الاختلاف (٣) » :
وكان من آثاره أن بعض الفقهاء كان يتحرج في الفتوى ، فقد رَوَى عن النخعي أنه
كان لا يقول عن شيء إنه حرام مطلقًا أو حلال مطلقًا ، ولكن يقول : إن هذا
يتكرهه الصحابة وذاك يستحسنونه (٤) . ولكن أمثال النخعي كانوا قليلين ، وكانت
الكثرة تذهب إلى الحكم البين والفتوى الواضحة . وسرعان ما رأينا الفقهاء
يتحاورون فيما بينهم ، فكان الشَّعْبِيُّ يجلس في مجالسه وأصحابه يناظرونه في الفقه (٥) .
ولم تقف هذه المناظرات والمجادلات عند بيئة الفقهاء ، بل انتقلت إلى مجالس
الخلفاء ، فقد رَوَى أن سليمان بن عبد الملك جمع بين قَتَادَةَ والزُّهْرِيَّ ، فغلبه

(١) المعارف لابن قتيبة (طبعة وستفولد) . (٤) سنن الدارمي (طبعة دمشق) ١/٦٤
ص ٢٤٨ .
(٢) العقيدة والشريعة في الإسلام ص ٢٨٣ .
(٣) بيان ٢/٩٨ .
(٤) وانظر ابن سعد ٦/٢٤٤ .
(٥) بيان ٢/٣٢٢ .

قتادة^(١). وكانت هذه المجادلات تأخذ أحياناً شكل أسئلة ، رَوَى ابن سعد أن «إياس بن معاوية حين قدم واسطاً جعلوا يقولون: قَدِمَ البَصْرِيُّ ، فاتاه ابن شُبْرَمَةَ بمسائل قد أعدّها له ، فجلس بين يديه ، فقال: أتأذن لي أن أسألك ، قال: ما ارتبْتُ بك حتى استأذنتني ، إن كانت لا تُعْنَتُ القائل ولا تؤذِي الجليسَ فَتَسَلْ » ، فسأله عن بضع وسبعين مسألة ، فما اختلفا يومئذ إلا في ثلاث مسائل أو أربع ، رَدَّه فيها إياس إلى قوله ، ثم قال: يا ابن شبرمة هل قرأت القرآن؟ قال: نعم من أوله إلى آخره ، قال: فهل قرأت: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي)؟ قال: نعم وما قبلها وما بعدها قال: فهل وجدته بقي لآل شبرمة شيء ينظرون فيه؟ فقال: لا ، فقال له إياس: إن للنسك فروعا ، فذكر الصوم والصلاة والحج والجهاد، وقال إنى لا أعلمك تعلقت من النسك بشيء أحسن من شيء في يدك: النظر في الرأي^(٢). وواضح أن إياساً جعل النظر في المسائل الفقهية وفروع الدين فوق النسك والعبادة .

وما من ريب في أن هذا النظر الفقهي وما طُوِيَ فيه من حوار وجدل كان له أثره الواسع في العقل العربي العام حينئذ ، فإن الناس ومعهم الشعراء كانوا يستمعون إلى هذه المجادلات والمناظرات . ومن طريف ما رَوَى الرواة في هذا الصدد أن الفرزدق كان يلزم حاكفة الحسن البصرى ، بينما كان جرير يلزم حلقة ابن سيرين^(٣) وحدث صاحب الأغاني أن رجلاً «سأل الحسن البصرى يوماً وعنده الفرزدق عن اليمين اللغو في الكلام من مثل لا والله ، فقال الفرزدق له: أو ما سمعت ما قلت في ذلك؟ فقال الحسن . ما كل ما قلت سمعوا فما قلت؟ فقال: قلت:

ولست بماخوذٍ بلغوٍ تقوُّلُهُ إذا لم تعمَّدْ عاقداتِ العزائمِ

ولم ينشَب أن جاء شخص آخر ، فسأل الحسن عن سببية الحرب المتروجة أتَحِلَّ لمن سبَّها؟ ، فقال الفرزدق أيضاً: أو ما سمعت ما قلت في ذلك؟ وأنشد:

(٣) ابن عبد ربه ١٦٩/٢ .

(١) بيان ٢٤٣/١ .
(٢) ابن سعد ج ٧ ق ٢ ص ٥ .

وَذَاتِ حَكِيلٍ أَنْكَحْتَنَا رَمَاحُنَا حَلَالٌ لِمَنْ يَسْبِي بِهَا لَمْ تُطَلَّقِ (١)

وأظن في ذلك ما يدل أبلغ الدلالة على صلة الشاعر الأموي بكل ما كان يجري في بيئات الفقهاء . والذي يهمنا حقاً أنه كان يطَّلَع على وجوه الخلاف وكانت تدعم عقله وتغذي فكره .

وأخذت تتكوّن في هذا العصر وفي العراق خاصة بذور علم الحِجَل الذي شاع فيما بعد عند فقهاء الأحناف ؟ وهو علم يقوم على اتساع المخرَج الذي يمكن أن يُخَلَّص من يقع في إشكال ديني ، وكان أهم جانب طُبِّقَ فيه جانب الأيمان ، وقد أشار إليه جرير في بعض نقائضه ، فقال (٢) :

وَلَا خَيْرَ فِي مَالٍ عَلَيْهِ أَلِيَّةٌ وَلَا فِي يَمِينٍ غَيْرِ ذَاتِ مَخَارِمٍ

والألية : اليمين ، والمخارم : الطرق في الجبال ، ويريد بها جرير هنا الطرق التي يَمْضِي فيها التحليل والاستثناء . ويقول ذو الرمة في وصف سُرَّاه بالليل (٣) :

طَوَى طِيَّةً فَوْقَ الْكَرَى جَتْفَنَ عَيْنِهِ عَلَى رَهَبَاتٍ مِنْ جَنَّاتِ الْمُحَازِرِ (٤)
قَلِيلًا كَتَحْلِيلِ الْأُلَى ثُمَّ قَلَّصَتْ بِهِ شِمَةَ رُوعَاءُ تَقْلِيصَ طَائِرِ (٥)

فهو يشهه إغفاهه وانتباهه السريع في السفر بتحليل الألى جمع ألوه وهي اليمين . فالشعر لم يكن غائباً عن مجالس الفقهاء ، بل كان حاضراً ، وكان يقظاً لكل ما يصدر منهم ، وإذن فما كان في هذه المجالس من حجاج وجدل ومناظرات ، كل ذلك أخذ طريقه إلى عقول الشعراء . ويكفي أن نقرأ ما يروى في البيان والتبيين عن إياس بن معاوية ومدى ذكائه ومقدرته في الجدل والاحتجاج (٦) لنعرف إلى أي حد كان يؤثر هؤلاء الفقهاء ليمين حولهم من شعراء وغير شعراء .

(١) أغاني (طبع الساسي) ١٩/١٤ .
(٢) نقائض جرير والفرزدق (طبعة بيفان) ص ٧٥٤ .
(٣) الديوان ص ٢٩٤ .
(٤) يقول ذو الرمة إنه أغمض عينيه على نوم قليل . وقوله من جنات المحاذر أي ما أجنبته صدره من الخوف .
(٥) يقول ذو الرمة إن شيمته رائحة ، وقلصت به تقليص طائر أي ارتفعت ارتفاع الطائر في سرعته ، يريد أنها قوية .
(٦) انظر البيان والتبيين ١/٩٨ وما بعدها .

وأخذت تظهر بجانب ذلك أبحاث في العقيدة ، وظهرت معها مقدمات علم الكلام . وكان من أهم المسائل التي عُرِضت للبحث مسألة الإيمان وهل من الضروري أن يُرْفَقَ بالعمل أو ليس ذلك من الضروري ؟ فالمسلم يعدُّ مؤمناً وإن جازَ عن طريق القصد ، وبذلك لا يكون هناك فرق بين مسلم ومسلم ، فالجميع من أهل القبلة ، وإن عصوا ، أو لم يؤدوا الفروض الدينية ! .

وذهبت تدعو هذه الدعوة فئةً سميت بالمرجئة ، وكان من أهم ما دعت إليه تركُّ الحكم على مصير الناس إلى ربهم ، فعلى وعثمان ومعاوية مؤمنون ، ولا نستطيع الحكم على أحدهم بخطأ ، وكذلك كل مسلم لا يصح أن نتعرض له بحكم على عمله ، فيكفي أن يكون مسلماً ، أما عمله فذلك لربه ، حتى ولو لم يصم ولم يصل فهو مسلم ولا يصح أن يُطْرَد من حظيرة الإسلام .

وبذلك كان أول مبادئ المرجئة إرجاء الحكم على المسلم وترك أمره لربه حتى لو أهمل الفروض الدينية ، بل حتى لو اقرء المعاصي والآثام . وكثرهم تؤمن بالجبر وتعطيل حرية الإنسان أمام القدر . وكان منهم من يرى أن تُردَّ الخلافة إلى الأمة فلا تختص بها قريش سواء بيئها الأموي الحاكم أو البيت العلوي .

ومن هنا كان مذهب المرجئة مثاراً للمناظرات ومجادلات كثيرة في العراق ، وخاصة في الكوفة دار الشيعة ومستقرهم منذ على ، فكانوا ما يزالون يتحاورون معهم ويتناقشون ، يدل على ذلك ما رواه ابن سعد من أن رجلاً كان يأتي النَّخْعِي فيتعلم منه ، فيسمع قوماً يذكرون أمر على وعثمان ، فقال : أنا أتعلم من هذا الرجل ، وأرى الناس مختلفين في أمر على وعثمان ، فسأل إبراهيم النَّخْعِي عن ذلك فقال ما أنا بسبيٍّ ولا مرجيٍّ^(١) . والنسبي نسبة إلى عبد الله بن سبأ أحد غلاة الشيعة . وفي البيان والتبيين لبعض الشعراء^(٢) .

إذا المرْجِيُّ سرَّك أن تراهُ يموت بدائه من قبل مَوْتِهِ
فجددٌ عنده ذِكْرِي علىٌ وصلَّ على النبي وأهل بيته

ويظهر أن الجدل في الإرجاء اتسع ، فنحن نجد منتقل إلى مجالس الخلفاء فقد روي أن عمر بن عبد العزيز حين ولى الخلافة رحل إليه من الكوفة عوف بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي ، ومعهم أبو الصباح موسى بن أبي كثير وعمر بن حمزة ، فكلّموه في الإرجاء وناظروه ؛ فزعموا أنه وافقهم ولم يخالفهم في شيء منه (١) .

ونجد في هذا العصر شاعراً يثبت في شعره آراء المرجئة الجبرية ، ويوضح أصول العقيدة التي اعتنقوها ، وهو ثابت قطننة الذي نشأ في العراق ، ثم تقاب في حروب خراسان قائداً وعاملاً من عمال الثغور ، واستمع إليه يقول (٢) :

نُرْجَى الْأُمُورَ إِذَا كَانَتْ مَشْبَهَةً وَتَصْلُقُ الْقَوْلَ فِيمَنْ جَارَ أَوْ عَنَدَا
 الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْإِسْلَامِ كُلِّهِمْ وَالْمُشْرِكُونَ أَشْتَدُّوا دِينَهُمْ قِدَاداً (٣)
 وَلَا أَرَى أَنْ ذَنْبًا بِالْفُحْشِ أَحَدًا مَنِ النَّاسِ شَرِكًا إِذَا مَا حَلَلُوا الصَّمَدَا
 وَمَا قَضَى اللَّهُ مِنْ أَمْرٍ فَلَيْسَ لَهُ رَدٌّ وَمَا يَقْضَى مِنْ شَيْءٍ يَكُنْ رَشَدًا
 كُلُّ الْخَوَارِجِ مُخْطِئٌ فِي مَقَالَتِهِ وَلَوْ تَعَبَّدَ فِيمَا قَالَ وَاجْتَهَدَا
 أَمَا عَلِيٌّ وَعُمَانٌ فَإِنَّهُمَا عَبْدَانِ لَمْ يُشْرِكَا بِاللَّهِ مَذَّعَبَدَا

وهذه وثيقة طريفة أودع فيها ثابت رأى المرجئة ، فهم لا يحكمون على الأمور المشتبهة ، وهم في الوقت نفسه لا يكفرون أحداً من المسلمين على نحو ما يصنع الخوارج إذ كفروا عامة المسلمين ، وزعموا أن دارهم دار حرب ، فيجب أن يقاتلوا أو يتبعوهم على مذهبهم . ثم هم يرجئون الحكم على عثمان وصاحبه علي ، فهم مرجئة ، يرجئون الحكومة على الأعمال .

وأشار ثابت في البيت الرابع من أبياته إلى مسألة أخرى لعبت دوراً طويلاً في تاريخ علم العقائد الإسلامي أو علم الكلام ، وهي مسألة الجبر والاختيار في إرادة الإنسان وأعماله . وقد التحم في هذه المسألة علم العقائد المسيحي (٤)

(٤) انظر في ذلك الحضارة الإسلامية لفون كيريم ص ٦٦ وكذلك انظر تاريخ الفلسفة في الإسلام لدى بور ص ٤٩ .

(١) ابن سعد ٢١٨/٦ .
 (٢) أغاني (طبع الساسي) ٥٠/١٣ .
 (٣) أشتوا: فرقوا . قدا: فرقاً مختلفة الأهواء .

بما جاء في القرآن الكريم والحديث الشريف من آى ونصوص ، قد يُفهم منها الجبّر أو يفهم منها الاختيار . وواضح من بيت ثابت أنه من الجبّريّة وكان من المرجّحة من لا يؤمن بالجبر وأن حرية الإنسان معطلة أمام القدر . وبذلك كانوا فريقين : فريقاً جبّريّاً وفريقاً قدريّاً . ومعروف أن القدرية هم القائلون بحرية الإرادة ، حتى يحمل الإنسان وزرّ ما يرتكبه من أعمال . ويظهر أنهم أحسوا في الجبر لا دعوةً للاتكال والتهاون والركون إلى القدر فحسب ، بل أحسوا فيه دعوة سياسية ماكرة لبني أمية لأنه يفضى بالناس إلى أن يعتقدوا أن حكم بني أمية مهما ظلموا قدرٌ مقدور ، سبق لهم في أمّ الكتاب ، فلا داعى لتقدم ولا للخروج عليهم .

ويمثّل النزعة الجبّريّة في وضوح من خلفاء بى أمية عبد الملك بن مروان فإنه استقدم عمرو بن سعيد بن العاص حين ثار عليه في حمص ، ليصلحه ثم غدر به وقتله ، ونادى في أصحابه : « إن أمير المؤمنين قد قتل صاحبكم بما كان من القضاء السابق والأمر النافذ الذى لا يمكن تجنّبهُ » (١) .

وإذا كانت الكوفة قد عُرُفت بمناقشاتهما ومناظراتها لهذا العصر في الإرجاء فإن البصرة عُرُفت بمحاوراتها ومجادلاتها في القدر . وزعيم القائلين فيها بالقدر غير منازع الحسن البصرى ، ويروى أن عطاء بن يسار ومعبداً الجهميين كانا يأتيانه فيقولان : « إن هؤلاء الملوك (بني أمية) على قدر الله فيقول كذب أعداء الله (٢) » . وفي دار الكتب المصرية رسالة مخطوطة طريفة موجهة من الحسن البصرى إلى عبد الملك يرد فيها على ما سأله عنه من قوله بالقدر ، وقد تحمس فيها الحسن تحمساً شديداً للمذهب القدر ، وأتى بكل ما يسنّده من آى القرآن ونصوص الحديث . ويظهر أنه كان دائم الجدال في هذه المسألة يثيرها في مجالسه ، ويشيرها معه من يستمعون إليه ، فقد روى عن أيوب السخيتاني أنه كان يقول : « نازلت الحسن في القدر غير مرة » (٣) .

وقد ظهر في مجالسه كثير من شعَب القول بالقدر كشعبة العدل وأن الله

(١) الإمامة والسياسة (نشر المكتبة التجارية) (٢) المعارف ص ٢٢٥ .
(٣) ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ١٢٢ .

لا يظلم أحداً ، ففي الذكر الحكيم (إن الله لا يظلم مثقال ذرة) . وهي فكرة تتصل مباشرة بجملة الإرادة وأن كل إنسان يُجزَى حسب عمله ، وكان الحسن يؤمن بها^(١) ، وبأصلها من فكرة الإرادة وحرية العمل . ولعل من الطريف أن نجد الحجاج حين يتحدث يُنشد هذا الشعر^(٢) :

إنَّ ذنبي وزنُّ السموات والأر ض وظنِّي بخالقي أن يُحسابني
فلئن منَّ بالرضا فهو ظني ولئن مرَّ بالكتاب عذابني
لم يكن ذاك منه ظلماً وهل يَنظ لم ربُّ يُرجي لحسن المآبِ
وهذا شعر يتصل مباشرة بفكرة العدل على الله وأنه لا يظلم أحداً تقيراً . وكما ظهرت هذه المسألة في مجالس الحسن ظهرت مسألة أخرى ، دلت على فكر دقيق ، وهي مسألة مرتكب الكبيرة الذي تكفَّره الخوارج ، فقد ذهب الحسن إلى أنه مؤمن فاسق ، وذهب تلميذه واصل إلى أنه في منزلة بين المنزلتين ، أي منزلة بين الإيمان والكفر^(٣) .

ويقول الرواة إن الحسن البصري كان يجمع بين واصل وتلميذه له آخر هو عمرو ابن عبَّيد ليتناظرا في هذه المسألة . وروى المرتضى في أماليه إحدى مناظراتهم^(٤) وهي تصور في وضوح دقة الفكر التي وصل إليها الناس في العصر الأموي .

ولم يكن الشعراء بمعزل عن هذا كله ، بل شاركوا فيه . فذو الرِّمة مثلاً كان على مذهب القدر وما يتصل به من فكرة العدل ، يشهد لذلك ما يُروى من أنه اختصم فيه مع رُوْبَة الذي كان يرى رأى الجبرية ، فقال رُوْبَة : « والله ما فحَص طائر أفحوصاً^(٥) ولا تفرمص سبع قُرموصاً^(٦) إلا بقضاء من الله وقدر ، فقال له ذو الرمة : والله ما قدر الله على الذئب أن يأكل حلوبة عيَّابيل^(٧) ضرائك^(٨) ، فقال رُوْبَة : أفبقدرته أكلها ؟ هذا كذب على الذئب ثان ، فقال ذو الرمة : الكذب على الذئب خير من الكذب على ربِّ الذئب^(٩) » .

- (١) أمالي المرتضى ١/١٠٢ .
(٢) ذيل الأمال والنوادر طبع (دار الكتب المصرية) ص ١٧٢ .
(٣) الملل والنحل للشهرستاني (طبع لندن) ص ٣٣ .
(٤) أمالي المرتضى ١/١٦٥ وما بعدها .
(٥) أفحوص الطائر : مجثم الذي يفحصه .
(٦) القرموص : بيت السبع ، أو المكان يأوي إليه .
(٧) العيَّابيل : جمع عيل وهو ذو العيال .
(٨) الضرائك : جمع ضريك وهو الفقير .
(٩) أمالي المرتضى ١/١٩ .

وواضح أن ذا الرمة : يأخذ بمذهب القدرية بينما يأخذ رؤبة بمذهب الجبرية .
وعن إسحق بن سُوَيْد أنه قال : « أنشدني ذو الرمة قوله :

وعينان قال اللهُ كونا فكانتا فعُولان بالألباب ما تفعل الخمرُ

فقلت له : هلا قلت فعولين ، فأجاب لو قلت : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر كان خيراً لك » . يريد أن يعرفه أنه راغب عن فكرته في الجبر^(١) .

فدو الرمة شاعر قدرى وكان يقابله في الكفة الثانية أو في الصف الثاني رؤبة وجميع شعراء بني أمية الذين كانوا يملحونهم وينالون جوائزهم ، فقد كانوا يرون سادتهم على مذهب الجبر ، فكانوا يتعمدون الاحتكام إليه في تقرير خلافة بني أمية إما عن عقيدة ثابتة وإما من أجل إرضائهم . وفي كل مكان من شعر جرير والفرزدق نجد اللجوء إلى الجبر في تقرير خلافة الأمويين وأن الله كتب ذلك ، ولا مفسر منه ولا تبديل لكلماته ، يقول جرير^(٢) :

نال الخلافة إذ كانت له قدراً كما أتى ربّه موسى على قدرٍ

والأمثلة في ديوانه وديوان صاحبه الفرزدق أكثر من أن ندلّ عليها بيت أو أبيات ، واستمع إلى أعشى بني تغلب يقول^(٣) :

وإن أمير المؤمنين وجرحه لكالدهر لا عارٌ بما فعل الدهرُ

وهو يشير بذلك في صراحة إلى أنه لا يصح لأحد أن يشكو من أمير المؤمنين ظلماً ، لأن ما يصدر عنه إنما هو بقدر من الله .

وعلى هذا النحو كان الشعراء في عصر بني أمية يُصَبِّغ شعرهم بكل ما يدور في بيئات الفقهاء وأصحاب الكلام ، بل رأينا منهم من كان يشترك في المناقشات الدائرة في هذه البيئات كما مرَّ بين ذى الرمة ورؤبة ، فالجو كله كان جوًّا بحث ، وكان كل شاعر يعرض عقله ورأيه فيه . ويخيّل إلى الإنسان أنه لم تكن هناك مسألة من المسائل في هذا العصر إلا وتناقش فيها الناس في سلمهم وحرهم ، وفي

(٣) (أغانى طبع دارالكتب) ٢٨٢/١١ .

(١) أغانى طبع الساسى ١١٧/١٦ .

(٢) الديوان ص ٢٧٥ .

مساجدهم وطرقاتهم ، فالفقهاء يتناقشون ، والقدرية والجبرية يتجادلون ، والمرجئة والشيعة يتحاورون . وكذلك الحوارج يدعون إلى المناقشة والمناظرة على نحو ما دعا الحرورية مطرف^(١) بن عبد الله بن الشخير . وكانوا يتجادلون ويتناظرون أيضاً فيما بينهم ، مما دعا إلى كثرة الانقسام في صفوفهم ، حتى قال زيد بن جندب خطيب الأزقة^(٢) :

ما كان أغنى رجلاً ضلّ مسعيهمُ
عن الجدال وأغناهم عن الخطبِ
كنا أناساً على دين ففرقنا
طولُ الجدالِ وخاطُ الجِدِّ باللعبِ

فلم تكن في هذا العصر نحلة ولا فكرة إلا وكانت موضعاً لمناظرات ومجادلات شتى .

وقد انسابت هذه المجادلات والمناظرات في شعر الشعراء ، فكثرت شعراء الفرق من شيعة وحوارج وأمويين ، وكثرت شعراء الجبرية والمرجئة والقدرية ، واحتدم الحجاج والحوارج بين هؤلاء الشعراء جميعاً ، حتى لنجد شاعراً يؤلف ديواناً في الاستدلال للهاشيمين وبيت على خاصة ، وهو الكُمَيْت بن زيد ، فقد ألف ديوانه (الهاشميات) انتصاراً لزيد بن علي بن الحسين إمام الطائفة المعروفة بالزيدية ، وكان زيد تلميذاً^(٣) لواصل بن عطاء ، ومعنى ذلك أنه كان من المعتزلة ، وكذلك جميع الزيدية . وإذن فالكُميت أيضاً يُعَدُّ من المعتزلة .

والكُميت من هذه الناحية شخصية طريفة لأنه من جهة يُعَدُّ من المعتزلة ومن جهة بعد من الشيعة ، وديوانه لذلك يصور الناحيتين ، ويكشف عن مدى ما أصاب التفكير الفني في هذا العصر من تطور ، إذ نجد هذا التفكير يتحول إلى جدال وطرق استدلال لم تكن نألفها في القديم ، فقد أصبح الشاعر يعتنق نظرية سياسية خاصة يؤمن بها ويجعلها محور شعره ، كما أصبح مثقفاً بطرق الجدال والحوار المعاصرة وهو يُطبِّقها في شعره تطبيقاً ، ويُخضع نفسه وفنه لأساليبها إخضاعاً

(٣) انظر الشهرستاني ص ١١٥ - ١١٦ .

(١) ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ١٠٤ .

(٢) بيان ٤٢/١ .

وإذا كان الكميّ في « هاشمياته » يتصل مباشرة بالمناظرات المعاصرة له في الشيعة وغيرهم ، فقد وُجِدَ من ورائه من لم يحاولوا تأليف ديوان خاص في نِحْلَةِ من النَحْلِ ، ومع ذلك تأثروا بهذه المناظرات في طرق تفكيرهم . ويكفي أن نرجع إلى نقائض جرير والفرزدق في قيس وتميم لنعرف أن هذه النقائض لم تكن في حقيقة الأمر سوى مناظرات عقدها الشاعران التميميان في عصبيات وأيام قديمة ، وقد أخذ كل منهما يحاول أن يتفوق على خصمه تماماً كما يصنع المتناظران في نحلة من النحل أو عقيلة من العقائد .

فالنقائض التي اشتهرت في تاريخ الشعر الأموي ليست إلاّ مناظرات بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، وسنعرض في الفصل التالي لصورتها ونشأتها . ونحن ننبّه منذ الآن إلى أنها فنّ أموي غَدَّتْه وطَوَّرَتْه هذه البيئة الجدلّية بيئة العراق وما انبثّ فيها من طرق حوار واستدلال في كل شيء ، وهو حوار واستدلال لم يلبث أن اتصل به الفرزدق وجرير وتناول كل منهما قَبَسًا منه ألَّفَا على ضوئه هذه النقائض . وسرعان ما أقبل الأخطل يشاركهما في هذا الحوار أو قل هذه المناظرات ويبعث فيها جانباً جديداً من المفاضلة بين قيس وتغلب . وكل ذلك يُرادُ به إلى التسلية وقطع أوقات الفراغ لقبائل العرب التي استقرت في العراق ، ولم يكن يراد به جدّاً ولا ما يشبه الجدل مما سنفصل فيه القول فيما بعد .

والحق أن عقلية الشاعر الأموي اختلفت تمام الاختلاف عن عقلية الشاعر القديم ، فقد ثَقِفَ أشياء لم يكن يَشَقِّقُها الشاعر الجاهلي ، ويخضع في تفكيره لأشياء لم يكن يخضع لها الشاعر الجاهلي ، فأنتج (النقائض) و (هاشميات الكميّ) من جهة وأنتج عمقاً وطرافة في التفكير الفنى نلاحظهما في معاني كثير من الأبيات من جهة أخرى .

ولعل أهم ما يلاحظ على تفكيره وعقليته وما طرأ عليها من تطور أننا نحس عنده أنه أخذ يتناول حرفته تناولاً جديداً ، عماده البحث والدرس اللذان أَلِفَهُمَا في بيئات الفقهاء وأصحاب التفكير في العقيدة الدينية من إرجاء وقدّر وجبّر وعدّل ومنزلة تتوسط منزلتين ، كما توسطت منزلة صاحب الكبيرة بين الكفر والإيمان عند واصل .

وارجع إلى ديوان الفرزدق فإنك تجد فيه قصيدة لامية يفتخر فيها بأنه وريث شعراء الجاهلية من مثل امرئ القيس وعلقمة والمهلهل وطرفة والأعشى والمرقش وبشّر بن أبي خازم وعبيد وزهير، ويصف كل منهم وصفاً يدل على معرفته به ودراسته لشعره ، ويذكر ليبدأ فيقول^(١) :

والجعفرى وكان بشرٌ قبله لى من قصائده الكتاب المجلد
فهو يصرّح بأن لديه نسخة مكتوبة من ديوان لبيد . ولعل في ذلك ما يدل دلالة قاطعة على أن كتابة الشعر كانت متداولة في هذا العصر ، ونحن لانستطيع أن نفهم ما يروى عن الفرزدق من أنه كان يأمر راويه حين يستمع إلى شعر فيستحسنه أن يضيفه إلى شعره^(٢) إلا إذا كانت هناك نسخة مكتوبة من ديوانه ، حتى يضيف إليها الراوى الشعر الجديد .

قد يقال إن الشعراء كانوا أميين ولكن نصوصاً كثيرة تثبت أنهم كانوا كاتبين فجزير كان كاتباً^(٣) وكذلك عمر بن أبي ربيعة^(٤) والأحوص^(٥) وعدي^(٦) بن الرقاع ، ويروى الجاحظ أن ذا الرمة كان يقول لعيسى بن عمر : « أكتب شعري ، فالكتاب أحبُّ إلى من الحفظ ، لأن الأعرابي ينسى الكلمة وقد سهر في طلبها ليلته ، فيضع في موضعها كلمة في وزنها ، ثم ينشدها الناس ، والكتاب لا ينسى ولا يبذل كلاماً بكلام^(٧) »

فشاعر العصر الأموى كان شاعراً كاتباً وكان يكتب شعره وشعر غيره كي يدرسه ويبحثه وينقل عنه حين يريد النقل ويحوّره حين يريد التحوير . ولعل مما يدل على ذلك أكبر الدلالة أننا نجد الصلة شديدة بين معاني الشاعر الأموى والشاعر الجاهلي . وتعرض كتب النقد الأدبي عند العرب كثيراً لأبيات في الجاهلية أعاد الأمويون صياغتها فاستكملوا الصورة وأتموها ، أو بيّنوا الفكرة ووضّحوها ، فن ذلك أن النابغة شبه شورّ الوحش في التماعه بالسيف المجرد من الغمّ إذ يقول^(٨) :

(١) الديوان ص ٧٢١ .

(٢) الشعر وأشعراء (طبع ليدن) ص ٣٩٢ .

(٣) الخوان ٤١/١ .

(٤) المعلقات العشر (طبع مطبعة الاستقامة) ص ١٦٢ .

(٥) أغاني ٢٢/١٩ .

(٦) أغاني (طبع دار الكتب) ٣٢/٨ .

(٧) أغاني ٢٣٥/١ .

(٨) أغاني ٢٤٦/٤ وما بعدها .

من وحشٍ وجرةٍ موشىٍ أكارعه طاولى المصير كسيف الصيقل الفرد^(١)
فجاء من بعده الطيرمّاح ورأى أن يُبرز الصورة إبرازاً جديداً، فشبّه الثور
وهو يبدو تارة ويختفي أخرى بسيف في يد شخص بمكان عال ، وهو يسله تارة
ويغمده تارة ، فقال^(٢) :

يَبْدُو وتُضمّره البلاد كأنه سَيْفٌ على شَرَفٍ يُسَلِّ وَيُغْمَدُ

ومن ذلك أن زهيراً تعرّض للموت والحياة ، فقال إن المنايا تخبّط على غير
هُدًى فنن تصبه يمّ ، ومن تخطئه يعمّر ويمتد به الأجل ، إذ يقول^(٣) :

رَأَيْتِ المنايا خَبِطَ عَشْوَاءَ من تُصِيبُ تُمِيتُهُ ومن تُحْطِئُ يُعَمِّرُ فِيهِمْ

فأتى من بعده أبو النّجّم العجلى ، ورأى أن يعبر عن هذه الفكرة تعبيراً
جديداً أو قل رأى أن يبسطها بسطاً ، وأن يكشفها كشفاً ، فقال^(٤) :

إنّ الفتي يصيحُ للأسقامِ كالغرض المنصوبِ للسّهامِ
أخطاه رامٍ وأصاب رامٍ

فالشاعر الأموى تعلّق بمعرفة المعانى الجاهلية ، وأخضعها للدرس المنظّم على
نحو ما كان المحدثون والفقهاء وأصحاب الكلام فى العقيدة الدينية يدرسون
ويبحثون ، وقد أسعفته عقلية الجديدة ، التى بناها فى هذا العصر وما اندمج فيها
من طرق جدال وحوار ، على كل ما أراد من تحوير وتوليد فى المعانى .

وربما كان أهم شىء رسب فى الشعر الأموى عن هذه العقلية الجديدة أننا
نجد الشعراء يتخصصون فى موضوعات بعينها ، لا يعمدونها إلى غيرها ، فعمربن
ابن أبى ربيعة يذهب شعره فى الغزل ، وذو الرمة يذهب شعره ، أو يكاد ، فى
وصف الصحراء ، ويرتقى الفرزدق وجرير بفضن الهجاء ويحلّدان فيه النقائض المعروفة .
ولا شك فى أن هذا أثر من آثار العقلية العربية فى العصر الأموى وما أصابها

(١) وجرة: موضع كثير الوحش . وأكارعه :
قوائمه ، ووشيا: بياضها مع انتشار نقط سوداء
فيها . والمصير : الممى ، كنى به عن البطن .
(٢) الديوان ص ٩١ .
(٣) الملققات العشر ص ٩٤ .
(٤) الحيوان ٥٠٩/٦ .
الفرد : المنفرد .

من تطور ، فقد أخذ الناس يعيشون في نِحْلٍ ونظريات معينة ، كمنظريّة الخوارج ونظريّة الشيعة ونظريّة الجبر أو القدر ، يودعون فيها حياتهم كلها ولا يَعدّونها إلى غيرها ، فتأثّرهم الشعراء وحوّلوا موضوعات الشعر إلى ما يشبه النّحلة من النّحل ، وعاشوا في الموضوع ، الذي اختاروه أو كادوا ، حياتهم كلها .

وليس هذا كل ما أحرزه الشعر في العصر الأموي عن طريق العقليّة الجديدة وما شاع من بحث ودرس للمسائل وما كان من الصّلة بين الشعراء وبين المحدثين والفقهاء والمتناظرين في الإرجاء والجبر والقدر . فهناك جانب تعليمي في هذا الشعر لم نتحدث عنه حتى الآن ، وذلك أن الناس أخذوا يتخصصون في اللغة العربيّة نفسها وما يتصل بها من الشعر والأيام ، ثم من نحوها ولغتها ، فوجدت طبقة من الأدباء المعلّمين ، ولم يابث أن انتظم فيهم بعض الشعراء مثل الطرّمّاح وكان مؤدّباً للصبيان في الكوفة والرّي^(١) ومثل الكُمَيْت ، وكان أيضاً من المؤدّبين المعلّمين^(٢) .

والطريف أن وظيفة هؤلاء المعلّمين وما يراد منهم من تثقيف الناشئة باللغة اضطرتهم إلى أن يؤلّفوا كثيراً من شعرهم لهذه الغاية نفسها . ومن يرجع إلى ديوان الطرمّاح يستطيع أن يلاحظ في وضوح أن شعره يمكن أن يُقسّم قسمين : قسماً واضحاً فيه مديحٌ وهجاء ، وقسماً غير واضح فيه حديثٌ عن الصحراء وكل ما يتصل بها ، وهو شعر أريد به قبل كل شيء إلى تعليم اللغة بغرائبها وأوابدها .

وهذه ظاهرة جديدة لم تكن مألوفة في الشعر العربي قبل العصر الأموي عصر الدرس والتعليم ، فقد أخذ الشعر في بعض جوانبه أو قصائده يُعبّر لا عن حاجة وجدانية ، وإنما عن حاجة لغوية . على أن طبقة المقصّدين من أمثال الطرمّاح والكميت لم تبلغ في هذا الباب من التعاميم اللغويّة ما بلغته طبقة الرّجّاز من أمثال رؤبة ، فن يتعقب أخبارهم في كتب الأدب يلاحظ أن من أهم غاياتهم في شعرهم خدمة اللغة والمؤدّبين أو اللغويين القائمين عليها بما يمدونهم من الشواذ والشوارد بحيث أصبحت بعض أراجيزهم كأنها متون لغوية للحفظ والتسميع .

وأكبر الظن أنه قد اتضح الآن مدى ما أصاب التفكير الفني عند الشاعر

(٢) الشعر والشعراء ص ٣٦٨ .

(١) البيان ٢/٣٢٣ .

الأموى من رقى وتطور ، فقد أخذ يلتحم هذا التفكير بكل ما كان في العصر من ثقافة فكرية أو عقلية . فالبناء الفنى للشعر لم تنفصل وحداته عن البناء العقلى العام بل قل إن هذا البناء أخذ يتشكل فى أوضاع جديدة تحت تأثير الرقى الفكرى الذى أصاب العقلية العربية .

٣

الحياة السياسية

لم تكن الحياة السياسية فى عصر بنى أمية حياة هادئة ، بل كانت حياة ثائرة ، إذ كان الأمويون يُعدُّون فى رأى كثير من الأمة الإسلامية غاصبين للخلافة ، والبلد الوحيد الذى كان هادئاً إلى حد ما هو الشام ، فقد وجد أهله من بنى أمية ورثة شرعيين لآل جفنة ، واستطاعوا عن طريقهم أن يحققوا ما لم يكونوا يطمحون به فى القديم ، إذ أشرفوا وسادوا لا على العراق ، مركز المناذرة خصوصهم فى الجاهلية ، فحسب ، بل على العالم الإسلامى كله .

وإذا تركنا الشام إلى الحجاز والعراق وجدنا فيهما فنوناً من السخط على بنى أمية وحكومتهم ، وسرعان ما تكونت تحت تأثير هذا السخط أحزاب سياسية ثلاثة كانت تعارض بنى أمية وتخاصمهم وتدعو إلى الانتفاض عليهم ، وهى أحزاب الزُّبيريين والخوارج والشيعة . وقد تألفت هذه الأحزاب حول فكرة الإمامة أو الخلافة ومن أحقُّ بها من المسلمين . أما حزب الزبيريين وهم أتباع عبد الله بن الزُّبير فكان يرى أن تعود الخلافة إلى الحجاز ، وأن يتولّاها أحد أبناء الصحابة الأولين لا يزيد بن معاوية . بينما كان حزب الخوارج فى العراق يرى أن تُردَّ الخلافة إلى العرب والمسلمين جميعاً ، ليولّوا عليهم أكفأهم وأجدرهم بها . وكان بجوارهم فى العراق أيضاً حزب الشيعة وكان يرى أن تُردَّ الخلافة إلى بنى هاشم ، فهم بيت الرسول ، وهم أصحابها الحقيقيون .

وحزبُ الزبيريين فى الحجاز هو أقصر هذه الأحزاب عُمرًا ، فقد ظهر مع

دعوة ابن الزبير لنفسه بالخلافة بعد وفاة معاوية ، حتى إذا تُوَفِّي يزيد أجايبته الحجاز كلها ، كما أجايبته مصر والعراق وبعض بلدان الشام . ولكن لا نكاد نمضى بعد ذلك حتى نجد مَرَّوَان بن الحَكَم يظهر في الشام ومعه كَلْب والقبائل اليمنية ؛ فيقضى هناك على قبائل قَيْس في موقعة مَرَج رَاهِط المشهورة ، التي تُعَدُّ صِفِيْنًا ثانية ، ويصبح الشام خالصًا له ، ويستولى على مصر . ثم يتولى الخلافة من بعده ابنه عبد الملك ، فيقتل مصعب بن الزبير ، وإلى أخيه عبد الله على العراق ، ويرسل الحجاج إلى ابن الزبير في مكة فيحاصره ثم يقتله . وبقتل عبد الله بن الزبير ينتهي هذا الحزب الذي استمر نحو ثمانى سنوات ؛ وهي مدة قليلة لا تكفى لتكوين نظرية سياسية ، أو بعبارة أدق لم تتكوّن في أثنائها نظرية سياسية واضحة المعالم . ولذلك كان هذا الحزب أضعف الأحزاب في هذا العصر من حيث تمثيل فكرته عند الشعراء ، وأكثر ما تكوّن حوله من شعر نجده في حروب التيسية واليمينية في الشام . وفي الجزء الخامس من أنساب الأشراف للبلاذري حظٌّ لا بأس به من هذا الشعر ، وهو ليس شعر حزب بالمعنى المفهوم ، وإنما هو هجاء وحماسة على نحو ما كان الشعر في العصر الجاهلي .

وأهم شاعر اتصل بهذا الحزب واشتهر بزبيريته هو ابن قَيْس الرُقَيْبَات ، فقد اتصل بمُصْعَب ؛ وتخصص به حتى كاد يكون شاعره ، وله فيه مدائح كثيرة ، وقد ذهب يتغنى بزوجتيه سُكَيْبَةَ بنت الحسين وعائشة بنت طَلْحَةَ ، وما امتازتا به من جمال باهر ، وفي الوقت نفسه كان يتغزل غزلاً مُفْهِشًا بأُمِّ البنين زوجة الوليد بن عبد الملك ، يُريد أن يُسْقِطها من عليائها على سفح غزله الفاضح ، وفي شعره ثورة واضحة على عبد الملك وأصحابه من أهل الشام من مثل (١) :

كيف نَوَمَى على الفِرَاشِ ولما تَشْمَلِ الشَّامَ غَارَةً شِعْوَاءُ
تُدْهِلُ الشَّيْخَ عن بَنِيهِ وتُبْدِي عن بُرَاهِمَا (٢) العَقِيلَةَ العِذْرَاءُ

ولكننا قلما نجد بعد ذلك في ديوانه شيئًا واضحًا عن حقيقة هذا الحزب وأسس

(٢) البري : الخلاخيل ، والعقلية والعذراء هنا : السيدة الكريمة .

(١) الديوان ص ٩٥ وانظر الأغاني (طبع دار الكتب) ٧٨/٥ .

دعوته ، وأكبر الظن أننا لا نعدو الحقيقة حين نزعم أن هذا الحزب لم تتكوّن له نظرية سياسية قوية الدعائم .

وإذا كانت نظرية الزبيريين لم تأخذ فرصة واسعة كى تدعم جوانبها السياسية فإن حزبي الخوارج والشيعه أتيح لكل منهما أن يدعم نظريته في الخلافة وأن يسندها بالأدلة البينة لسبب بسيط ، وهو أنهما لم يكونا حزبين عارضين في تاريخ هذا العصر كحزب الزبيريين ، بل كانا حزبين ثابتين مستقرين .

ومن يتعقب الحوادث يستطيع أن يلاحظ ظهور حزب الخوارج منذ مقتل عثمان ، فالذين ناروا عليه من أهل العراق وشاركوا في قتله يمكن أن نعدّهم مقدمة هذا الحزب وبذوره الأولى ، وهى بذورٌ اكتنّت بعد مقتل عثمان والبيعة لعلى بن أبي طالب ، حتى إذا رضى بالتحكيم هبوا في وجهه ، كما هبوا سابقاً في وجه عثمان ، وكفّروه كما كفروا سلفه ، محتجين بمثل قوله تعالى : (فقاتلوا التى تبغى حتى تنفى إلى أمر الله) وقوله جلّ وعز : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) . وقالوا لا حكم إلا لله ، وكانهم أرادوا أن يردوا الدين والدولة إلى الله ، واعتزلوا علياً إلى حروراء بقرب الكوفة وكانهم أرادوا أن يهاجروا عن الجماعة الضالة على نحو ما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم عن أهل مكة (١) .

وسمّوا الخوارج لأنهم خرجوا على إمامهم الذى بايعوه ، وهو على ، وقيل بل هم الذين سمّوا أنفسهم هذا الاسم من قوله تعالى : (ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت ، فقد وقع أجره على الله) . وسمّوا أنفسهم الشراة أيضاً من قوله عز وجل : (ومن الناس من يشترى نفسه ابتغاء مرضاة الله) ويسمون الحرورية نسبة إلى حروراء التى اعتزلوا فيها علياً وجيشه أولاً .

وأساس مبادئهم جميعاً أن لا تُقصر الخلافة على قريش ، فالخلافة ليست حقاً لقريش بل هى حق لله ، وينبغى أن يتولاها خير المسلمين تقوى وزهداً وورعاً ولو لم يكن قرشياً بل لو كان عبداً حبشياً . وقد خرجوا على المسلمين واعتبروا دارهم دار حرب فيجب أن يجاهدوهم ، واستمروا في هذا الجهاد طوال عصر

بنى أمية . وكانوا بالرصد دائماً لمن يولّونهم عليهم من أنفسهم ، بحيث إذا عدلوا عن الحادّة راجعهم ، فإن رجحوا تركهم وإلا عزلهم ، شأنهم سابقاً مع عثمان وعلى . وما يلاحظ عليهم أنهم كانوا سرعان ما يختلفون ويفترقون ، وكلما اتفقوا على إمام ، ولذلك تعددت فرقهم ، وأهمها أربعة : الأزارقة ، والنجدات ، والصفريّة ، والإباضيّة .

والأزارقة هم أتباع نافع بن الأزرق ثم قطري بن الفجاءة . ومن أهم مراكزهم البطائح بالقرب من البصرة . وقد استولوا على فارس وكرمان ودوخا عبيد الله بن زياد وإلى معاوية وابنه يزيد ، واستمروا حتى أرسل إليهم مصعب بن الزبير المهلب ، فما زال يحاربهم حتى ظفر بهم في عهد الحجاج . أما النجدات فهم أتباع نجدة بن عامر الحنفي ، وكان مسرح نشاطهم اليمامة وحضرموت والبحرين ، ورواهم الحجاج بعمر بن عبيد الله بن معمر فهزمهم وقضى عليهم قضاءً مبرماً . وأما الصفريّة فهم أتباع زياد بن الأصفر ، وكان مسرح نشاطهم الموصل وبلاد الجزيرة ، واشتبكوا مع الحجاج في حروب كثيرة ، ومن قوادهم شبيب الشيباني الذي حارب الحجاج طويلاً ، وشوذب الذي ثار في عهد عمر ابن عبد العزيز ، والضحاك بن قيس الذي ثار في الأيام الأخيرة لبنى أمية . وأما الإباضية فهم أتباع عبد الله بن إياض التميمي ، وكان مسرح نشاطهم حضرموت واليمن ، ومن أهم قوادهم أبو حمزة الذي استولى على المدينة ومكة وخطب في الأخيرة خطبته المشهورة^(١) ، ولم تلبث جنود مروان بن محمد أن قتله .

وإذا كنا لم نجد للزبيريين شعراء يمثلون نظريتهم فإن شعراء الخوارج كثيرون كثرة مفرطة ، وتمتلىء كتب الأدب بأشعارهم ومقطوعاتهم ، وهي تسيل حماسة وبطولة ومن أهم ما يميّزهم حقاً أنهم كانوا حزباً فداثياً ، فكل منهم يُقبل على الموت وكأنه طلبه أو أميته ، وقد بلغ من شدة إيمانهم بمذهبهم ونظريتهم أن دوخت فئات قليلة منهم جمعاً غفيرة للأمويين وولائهم في العراق . وما يروى

في طرابلس والجزائر وعمان وزنجبار .

(١) انظر البيان والتبيين ١٢٢/٢ والإباضية لا يزالون موحدين إلى اليوم ، وهم متشرون

من ذلك أن أبا بلال خرج في أربعين بالأهواز لعهد عبید الله بن زياد ، فرماه بجيش مؤلف من ألقى رجل ، فثبت الأربعةون وفرّ الألفان ، وفي ذلك يقول أحد شعرائهم^(١) :

ألفاً مؤمنٍ منكم زعمتم ويقتلهم بأسك^(٢) أربعونا
كذبتم ليس ذلك كما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنونا
هم الفئة القليلة قد علمتم على الفئة الكثيرة ينصروننا

وهو يشير بذلك إلى قوله تعالى : (يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون) ، وقوله عز وجل : (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين) .

ويمتاز شعر هذا الحزب الفدائي بأنه ينفذ إلى القلوب نفوذاً ، فهو شعر يصلح عن عقيدة وإيمان بالغ بهذه العقيدة ، إذ آمن كل خارجي أنه يدافع عن حقوق الله والإسلام ، وأنه إن لم يخرج حققت عليه اللعنة بل حققت عليه النار ، ومن هنا يقول الطرماح^(٣) :

لقد شقيتُ شقاءً لا انقطاع له إن لم أفز فوزةً تُسجى من النارِ
والنارُ لم يتنجُ من روعاتها أحدٌ إلا المتيبُّ بقلب المخلص الشّارى

فهو يرى الظلام مطبقاً عليه من كل جانب إلا أن يفوز بهذا النور الذى يراه عند الشّرة أو الخوارج ، والذى يرجو أن يظفر به حتى ينجو من روعات النار ، وكأنه يعتقد أن النار أعدت لمن لا يخرج ، ويترك فئات المسلمين الضالة فى رأيه ! وقد ذهب يُشيد بالخوارج إشادة بالغة فى مثل قوله^(٤) :

لله درُّ الشّرة لإنهم إذا الكسرى مال بالطلا^(٥) أرقوا
يرجعون الحنين آونة وإن علا ساعة بهم شهقوا
خوفاً تبيت القلوب واجفة تكاد عنها الصدور تنفلق

(٤) الديوان ص ١٥٧ .
(٥) الطلا : جمع طلية وهى أصل العنق .

(١) طبرى (طبع أوروبا) ١٨٧/٢ .
(٢) أسك : موضع همدان .
(٣) الديوان ص ١٤٩ .

كيف أَرَجَى الحياة بعدهمُ وقد مضى مؤنسى فانطلقوا
قومٌ شِحاحٌ على اعتقادهمِ بالفوز مما يُخَافُ قد وثقوا

وهذه صورة رائعة للخوارج ، إذ نرى الطرماح يصورهم مسهدين يتلون آيات الله ، ويشهقون في تلاوتها كلما مروا على آية كريمة بها ذكرٌ لعذاب ، فالقلوب تبيت واجفة من خوف ربها حتى لتكاد الصدور تشقق عنها ، وهم يموتون مستشهدين في هذه العقيدة التي عرفوا بها ، وإنهم ليسترنخصون أرواحهم في سبيلها واثقين من فوزهم برضوان ربهم وجنانه ، وإن الطرماح ليرتمى أن تكون خاتمة كخاتمتهم ، واستمع إليه يقول (١) :

أذا العرشِ إن حانتُ وفاتى فلا تكن
ولكن أحنُ يومى سعيداً بعصبة
عصائبُ من شتى يؤلف بينهم
فوارسُ من شيان ألف بينهم
إذا فارقوا دنياهمُ فارقوا الأذى
فأقتلَ قَعَصًا ثم يرُمى بأعظمى
ويصبح لحمى بين طيرٍ مَقِيلُهُ
دُوَيْنَ السماءِ فى نُسُورٍ عواكفِ

فهو يدعو ربه أن يكتب له الشهادة في معترك الحرب وأن لا يموت حتف أنفه ، فيحمل في نعش على أكف الرجال . إنه يريد أن يموت كإخوانه من شيان ، وهم الذين تتألف منهم أكثر طائفة الصُفْرىة ، فهو صُفْرى ، وهو بثنى على أصحابه ويصفهم بالتقوى ، وأن هدى الله ألف بينهم . ويقول إنهم يستعذبون الموت في سبيل عقيدتهم ، وإن كلامهم ليرتمى أمنية الطرماح أن يُقتلَ قَعَصًا ، أى يقتل في مكانه بالسيوف ، وأن يرُمى بأعظمه كضغث الخلأ أو قبضة الكلأ ؛ فتذروه الرياح ، أو تنحط إليه طير السماء ، حتى تم له التضحية في سبيل عقيدته .

وهكذا شعر الخوارج في هذا العصر شعر يعبر عن فدائية خالصة ، فهو كله

بطولة ، وحماسة . واستبسال في سبيل العقيدة ، وإقبال على حياض الموت الزؤام دون خوف أو وجل ، بل في رضا وطمأنينة واستبشار بغفران الله ! . وما أظننا نبعد في وصفنا لهم بأنهم كانوا فدائيين ؛ فقد باعوا أنفسهم حقا في تحقيق فكرتهم ، وطلب كل منهم أن لا يموت في فراشه بل يموت قَعَصًا بالرماح ، وتتخطفه الطير والسباع كما يقول الطرماح .

وشعر الخوارج كله يذهب هذا المذهب من الحماسة ، وهي حماسة دينية ؛ فقد آمنوا بعقيدتهم واعتقدوا خطأ أن المسلمين ضلوا سواء السبيل ، أما هم فعلى الصراط المستقيم الذي تريده العناية الإلهية ! وهم يريدون أن يلوا المسلمين إليهم ، ولذلك يحاربونهم مستبسلين ، وكل منهم يريد أن يموت شهيداً في ساحة هذا الجهاد الديني الذي وهبوا أنفسهم له .

وكان يقابل حزب الخوارج في العراق حزب الشيعة ، وهو لا يقل أهمية عنه ، بل لعله أبعد منه خطراً في تاريخ الأمة الإسلامية . ويمكن أن نجد بذور هذا الحزب منذ أفصت الخلافة إلى أبي بكر وعمر ؛ فإن الحوادث التي وقعت بعد ذلك وانتهت بقتل عثمان تدل على أن بني هاشم كانوا يطمحون إلى الخلافة ، وأيضاً فإن الناس حين سخطوا على عثمان أخذ كثير منهم يبحثون سرا عن خليفة جديد ، وكان عليّ أحد من اتجهت إليه الأنظار ، بل لقد أخذت تتكوّن له بطانة ، وهي التي سميت فيما بعد بالشيعة .

ومعنى ذلك أن الشيعة أخذوا في الظهور بشكل واضح قبل أن يُقتل عثمان ، فلما قُتِل أُسرِعوا إلى علي وبايعوه بالخلافة . ومن حينئذ تكوّن هذا الحزب تكوّنًا سياسيًا ، وكان من أهم مبادئه أن يُختار علي للخلافة بصفته من بني هاشم الذين ينبغي أن تكون الخلافة خالصة لهم من دون الناس ، فهم آل الرسول ، وهم لذلك أولى الناس وأحقهم بخلافته .

ولما انتقل علي إلى العراق واتخذ الكوفة حاضرة له كان من الطبيعي بعد ذلك أن تصبح حاضرة هذا الحزب ، وقد أخذ يشايحه هناك كثير من أهل العراق بحكم أنه إمامهم . ثم بحكم أنه نقل دولته إليهم ، فقد جعل الدولة العربية كلها دواتهم ،

ولذلك كان اسم علي بعد قتله وتحول الخلافة إلى الشام يرمز إلى دولتهم المفقودة^(١). وقد وجد المولى في العراق من التَّبَطِّ والفرس وغيرهما في ظل علي ما لم يحقِّقه لهم الأمويون ، إذ كان يذهب إلى المساواة بينهم وبين العرب في الحقوق . فكان هذا كله سبباً في أن تصبح العراق وأن تصبح الكوفة بنوع خاص مركز الشيع

لعل وآله .

ونستطيع بذلك أن نفهم كثرة الثورات في العراق في أثناء هذا العصر ، فأهله لم يكونوا من هَوَى بنى أمية بل كانوا مغاضبين لهم ، وكانوا يثورون مع أول ناثر ، وقد ثاروا مراراً على الحجاج ، وثورة عبد الرحمن بن الأشعث عليه مشهورة ، وفي أوائل القرن الثاني للهجرة ثار يزيد بن المهلب . وهي ثورات تدل على أن أهل العراق لم يكونوا راضين عن بنى أمية ، وكانوا ينتهزون أي فرصة للخروج عليهم . ولم تقم الشيعة في العراق ثورة منظمة في أثناء هذا العصر إلا ما كان من ثورة المختار الثقفي لعهد مصعب بن الزبير ، وسرعان ما قُضِيَ عليه وانتهت هذه الثورة . واتجه الشيعة منذ مقتل المختار إلى الدعوة السرية . والمتعقب لحركاتهم في عصر بنى أمية يفاجأ مفاجأة بمحركة أبي مسلم في خراسان ودعوته هناك ونجاح هذه الدعوة ، مما يدل دلالة صريحة على أن خراسان كانت قد أصبحت مركزاً مهماً من مراكز الدعوة الشيعية ، ولكن كيف انتقل الشيع هناك ؟ يقول فلهوزن إن زياداً والحجاج هما اللذان نقلاه هناك فلإنهما دأبا على إرسال الجيوش العراقية إلى خراسان ، وبعثا معها بالعناصر المشاغبة في الكوفة والبصرة ، فأعداً بذلك للتحول الشيع هناك وانتشاره^(٢).

وأساس عقائد الشيعة الإمامة وأنها من حقوق البيت النبوي ، وقد ذهبوا إلى أن إمامة علي نص عليها الرسول عليه السلام ، فقد أوصى له ، ومن هنا تأتي عقيدة الوصية التي يدين بها الشيعة جميعاً ، كما يدينون بأن أئمتهم يمتازون بصفات روحية كثيرة ، فهم معصومون ، وعندهم من العلم كل ما يحتاج إليه الناس في دينهم وديارهم . وفي خطاب موجه من هشام بن عبد الملك إلى يوسف بن عمر الثقفي واليه

(٢) كتاب فلهوزن ص ٤٩٩ .

(١) انظر كتاب فلهوزن السابق ص ٦٦ .

على العراق : « أما بعد فقد علمت بحال أهل الكوفة في حبّهم أهل هذا البيت ووضعهم لإيهم في غير مواضعهم ، لأنهم افترضوا على أنفسهم طاعتهم ، ووظفوا عليهم شرائع دينهم ونحلّوهم عِلْمَ ما هو كائن (١) » .

ومن عقائد الشيعة التي لعبت دوراً مهماً في هذا العصر عقيدة المهديّ ، وهو الإمام الذي يتقدّم العالم بما فيه من شرور وآثام . وكان زعمائهم يُشيعون دائماً أن هذا المهديّ أو المخلص سيأتي ، ويُخَرِّج الناس مما هم فيه من ظلام وعذاب . وساعد على شيوع ذلك ما اتصفت به العقيدة الشيعية من سرية ، وهي سرية جرت في اعتبارها عقيدة التقيّة ، أو المداراة ، وأن من حق الشيعة أن يخفي تشيعه .

وأخذت تدخل في التشيع آراء وأفكار غالية . وعبد الله بن سبّا أحم شخص أدخل ذلك ، وكان يهودياً من اليمن أسلم ، واشترك في الثورة على عثمان وكان يتنقل في الأمصار الإسلامية ويؤلب الناس عليه ، وكان يزعم أن في عليّ جزءاً إلهياً ، وكأنه يتأثر ما عند النصارى من فكرة اتحاد اللاهوت بالناسوت . وهو أول من قال برجعة عليّ ، وأنه لم يمّت ، وكأنه يتأثر في ذلك بما عند اليهود من أن النبي إيليا قد رُفِعَ إلى السماء ، وأنه لا بد أن يعود إلى الأرض في آخر الزمان لإقامة العدل والحق . وكان يزعم أن عليّاً يحيى في السحاب ، وأن الرعد صوته ، والبرق سوطه (٢) .

ولعل في آراء ابن سبّا ما يشير إلى أن عناصر أجنبية أخذت تدخل في التشيع ، حتى ليزعم بعض الباحثين أن غلاة الشيعة بثّوا في التشيع مع مر الزمن كثيراً من دياناتهم الأولى ، فدخلت فيه عناصر من اليهودية والنصرانية كما عند ابن سبّا ، ودخلت فيه عناصر من الزرادشتية والمناوية الفارسيّين ومن البوذية الهندية (٣) .

ونحن لا يهمنا هنا البحث في عقيدة الشيعة من حيث هي ، وإنما يهمنا صلتها بالشعر في عصر بني أمية . ومن المعروف أن الشيعة كالأجارج تعدد فرّقهم ، وهناك فرقتان اشتهرتا في هذا العصر واتضحتا في شعر الشعراء ، إحداهما غالية وهي

(١) الترجمة العربية) ص ١٢١ والعقيدة والشريعة في الإسلام بلوكه تسير ص ١٧٤ وما بعدها .

(١) طبري ١٦٨٢/٢ .

(٢) الشهرستاني ص ١٣٢ .

(٣) السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات

فرقة الكيسانية ، والثانية معتدلة ، وهي فرقة الزيدية .

أما فرقة الكيسانية فزعيمها المختار الثقفي الذي ثار في العراق ، وعلا شأنه ، حتى قضى عليه مصعب بن الزبير . ولم يكن يدعو لأحد من أبناء فاطمة إنما كان يدعو لمحمد بن الحنفية من عليّ ، وكان يزعم أنه هو الذي أوصى له أبوه من بعده . ويظهر أنه رأى أن أبناء فاطمة لا يرتضون الغلوّ فيهم ، فقد أنكر الحسن رجعة أبيه^(١) ، وأنكر بعض أبناء الحسين فكرة الوصية^(٢) ، فعدل إلى ابن الحنفية وتبع ابن سبأ في كثير مما زعمه . وكان يميل إلى الشعوذة ، فادعى أنه يُوحى إليه ، واتخذ كرسيّاً قديماً غشّاه بالديباج ، فكان يضعه في مقامة جيوشه ، ويقول لأنصاره : قاتلوا عليه فهو منكم بمنزلة التابوت في بني إسرائيل ، وكان يرسل حمامات بيضاء على جيوشه في أثناء القتال ، ويزعم أنها ملائكة تنزل عليهم من السماء ، وفي ذلك يقول سُرّاقه البارقي^(٣) :

ألا أبلغ أبا إسحق أني رأيت البلق دهماً مُصمّاتِ
كفرتُ بوحيتكم وجعلت نذرًا عليّ قتالكم حتى المماتِ

ويقول أعشى همدان^(٤) :

شهدتُ عليكم أنكم سبئيةٌ وإني بكم يا شرطّة الشرك عارفُ
وأقسم ما كرسييتكم بسكينةٍ وإن كان قد لفتّ عليه اللقائفُ

وشاعر هذه الفرقة المشهور كثيرٌ ، ويقول أبو الفرج فيه : « كان غالباً في التشيع يذهب مذهب الكيسانية ، ويقول بالرجعة والتناسخ » . وفي ديوانه مدائح كثيرة في ابن الحنفية ، وفيه يقول^(٥) :

وصى النبي المصطفى وابن عمّه وفكّاكُ أغلالٍ وقاضي مغارمِ

ويقول^(٦) :

هو المهديّ خبّرناه كعَبّ أخو الأحبار في الحقبِ الأولى

(٤) طبري ٢/٧٠٤ .

(٥) الديوان ١/٢٥٨ .

(٦) الديوان ١/٢٥٥ .

(١) ابن سعد ج ٣ ق ١ ص ٢٦ .

(٢) ابن سعد ١٥٨/٥ وكذلك ٣٩١/٥ .

(٣) غرر ٣/٦٢٢ .

وكان يعتقد في الرّجعة أشدّ اعتقاد ، فلما توفّي ابن الحنفية لم يؤمن بوفاته ،
 وذهب يُنادى في الناس ^(١) :

ألا إن الأئمة من قريش
 على والثلاثة من بنيه
 فسبّ سبّ إيمان وبر ^(٢)
 وسيط لا تراه العين حتى
 تغيب لا يرى عنهم زماناً
 ولاية الحق أربعة سواء
 هم الأسباط ليس بهم خفاء
 وسبّ غيبته كتر بلاء ^(٣)
 يقود الخيل يقدمها اللواء
 برضوى عنده عسل وماء

فهو يؤمن بغيبة ابن الحنفية في جبل رضوى ، وأنه لم يمّت ، بل هو يمضي
 الفترة المعروفة عند غالبية الشيعة بالوقوف ، ثم يرجع ومعه الخيل يقدمها اللواء .
 وهكذا نجد في ديوان كُتّيب هذه الصفحة الحديدية التي تعبّر عن عقيدة الكيسانية ،
 وكل ما يتصل بها من غلوّ وإغراق في الغلوّ .

وإذا كانت فرقة الكيسانية غالبية على هذا النحو فإن فرقة الزيدية كانت
 معتدلة ، وإمامها زيد بن علي بن الحسين ، الذي خرج على هشام بن عبد الملك
 بالكوفة فقتل وصلب . ويسوق زيد وشيعته الإمامة في أولاد علي من فاطمة فقط ،
 وهم لا يُسبغون على الإمام صفات روحية تفصله عن البشر ، فكل ما يصفونه به العلم
 والزهد والسخاء والشجاعة . وقد أجازوا إمامة المفضول مع قيام الأفضل ، فكان
 زيد لا يبرأ من أبي بكر وعمر ، بل كان يرى أن ولايتهما صارت رَشْدًا وهُدًى لبيعة
 علي لهما ورضاه بهما ^(٤) . وقد تتلمذ زيد لواصل فاقتبس منه الاعتزال ، كما مرّ في
 غير هذا الموضع ، وبذلك غلب الاعتزال على أصحابه

وشاعر الزيدية المشهور الكُمَيْت بن زيد الأسدي ، وفي شعره ثورة شديدة
 على الأمويين ، يتأثر فيها إمامه زيداً الذي ثار فعلاً عليهم وقتلوه ، واستمع إليه
 يقول ^(٥) :

خمسة وعشرين ميلاً إلى الشمال الغربي من الكوفة .
 (٤) الشهرستاني ص ١١٥ .
 (٥) البيان والتبيين ٣ / ٣٦٥ .

(١) الديوان ١٨٦/٢ والأغانى (طبع دار
 الكتب) ١٤/٩ .
 (٢) يريد الحسن بن علي .
 (٣) يريد الحسين الذي قتل في كربلاء على بعد

فَقُلْ لِبَنِي أُمِيَّةٍ حَيْثُ حَلُّوا وَإِنْ خِفْتَ الْمَهْنَدَ وَالْقَطِيعَا (١)
 أَجَاعَ اللَّهُ مِنْ أَشْبَعْتُمُوهُ وَأَشْبَعٌ مِنْ بَجُورِكُمْ أَجْبَعَا
 بِمَرْضَى السِّيَاسَةِ هَاشِمِيٌّ يَكُونُ حَيًّا (٢) لِأُمَّتِهِ رَبِيعَا

وستحدث عنه حديثاً مفصلاً في موضع آخر ، فقد ألف في مذهبه الزيدي ديواناً خاصاً يُعْرَفُ بِاسْمِ (الهاشميات) وهو أقدم وثيقة بين أيدينا عن هذا المذهب ففيه كل ما آمن به زيد ودعا إليه ، وقد طُبِعَ بطابع الحِجَّاجِ والجدال في الدفاع عن حقوق آل البيت ، واصطبغ بصبغة عقلية جاءت صاحبه من اعتزاله واتصاله بمناقشات القَدَرِ والجَبْرِ وأن منزلة صاحب الكبيرة بين منزلتين وما إلى ذلك .

ولم نتكلم حتى الآن عن حزب بنى أمية ، وهو حزب الدولة والحكومة ، وكان ينتمج فيه أهل الشام وكثير من أهل البلدان الأخرى ، فهو حزب السواد الأعظم وكان لهذا الحزب الدائرون عنه والمدافعون الذين يَدْفَعُونَ خصومه من الزيريين والخوارج والشيعة ، بل الذين يغالون في هذا الدفاع وذلك الذُّود . فقد انقسم الناس أو قل انقسمت الأمة قسمين ، إذا أغضينا النظر عن الزيريين فقد كان حزبهم عارضاً وكذلك عن الخوارج ، فقد خرجوا على جمهور الأمة . أما عامة الناس فكانوا على قسمين : قسم مع بنى هاشم وهو الشيعة ، وقسم مع الأمويين وكانوا يُضَفِّونَ عليهم من صفات الإمامة ما يُضَفِّيه الشيعة على أمتهم ، وإلى ذلك يشير ابن الحنفية إذ يقول : « أهل بيتين من العرب يتخذهما الناس أنداداً من دون الله نحن وبنو عمنا هؤلاء يعني بنى أمية (٣) » .

فهذا الحزب الأموي كان يرفع من شأن خلفاء بنى أمية ، وينزلهم منزلة عليا ، فهم خلفاء الله ورسوله في أرضه ، وطاعتهم واجبة ، ونُصِرَتْهُمْ محتمة . ونجد هذه النزعة واضحة في خطب ولادة بنى أمية وقوادهم ، ومن أطرف ما يصورها خطبة زياد حين ولّاه معاوية على البصرة ، وهي الخطبة الموسومة بالبستراء ، فقد جاء فيها : « أيها الناس ، إنا أصبحنا لكم ساسةً وعنكم ذادة ، نسوسكم بساطان الله

(٢) ابن سعد ٦٨/٥ .

(١) المهند : الصيف . والقطيع : السوط .

(٢) الحيا : النيث .

الذي أعطانا ، وننود عنكم بقيسئء الله الذي نحولنا . فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل والإنصاف فيما ولينا، فاسترجبوا عدلنا وقيسئنا بمناصحتكم لنا . . . وادعوا الله بالصالح لأئمتكم ، فإنهم سامتكم المؤذبون ، وكهفئكم الذي إليه تأوون^(١) .

وواضح أن زياداً يقول في صراحة إن معاوية وولاته مخلفاء الله في الأرض؛ فهم يسوسون الناس بسلطانه ، وينودون عنهم بقيسئءه ، أو هم بعبارة أخرى أصحاب الحق الإلهي في هذه السياسة وتلك الحكومة التي يحكمون بها الناس . ويررى الرواة أن مسلم بن عقبة ، قائد أهل الشام في حربهم لأهل المدينة حين ثاروا على يزيد بن معاوية ، خطب في جيشه وهو على أبواب المدينة فقال : « يا أهل الشام أهنا القتال قتال قوم يريلون أن يلغفوا به عن دينهم ، وأن يعجزوا به نصر إمامهم^(٢) » . وقد حارب أشياع عبيد الله بن زياد الحسين ومن معه على أساس أنهم مرقوا من الدين ، وخرجوا على طاعة الإمام^(٣) .

وتدل النصوص التاريخية في هذا العصر على أن بني أمية إنما قتلوا الحسين وزيد بن علي صاحب مذهب الزيدية لأنهما خالفا الإمام وطالبا بالخلافة . أما بعد ذلك فكان الأمويون يعاملون الهاشميين معاملة حسنة^(٤) ، وكذلك كان ولائهم بخرمونهم إن لم يخرجوا أو يدعوا إلى الثورة .

على كل حال كانت صورة الخليفة الأموي في رأى حزبه صورة مقدسة ، لها جلالها وخطرها ، فهو الإمام الذي تعجب طاعته لأن طاعته من طاعة الله ، وطاعة خصومه من طاعة الشيطان ، يدل على ذلك أكبر الدلالة ما رواه الطبرى من أنه لما توفى يزيد بن معاوية ودعا ابن الزبير لنفسه قام حسان بن مالك بالأردن فقال : « يا أهل الأردن ، ما شهادتكم على ابن الزبير وعلى قتلى أهل الحررة ؟ قالوا نشهد أن ابن الزبير منافق وأن قتلتى أهل الحررة في النار ، قال :

(١) البيان والتبيين ٢/٦٤ .

(٢) طبرى ٢/٤١٤ وانظر كذلك طبرى

٢/٤٢٥ ، ٢/٤١٥ .

(٣) طبرى ٢/٣٤٢ .

(٤) انظر Lammens, Etudes sur le

Règne du Calife Omayyade Mo'awia

Ier, p. 154-

فما شهادتكم على يزيد بن معاوية وقتلاكم بالحرّة؟ قالوا: نشهد أن يزيد على الحق وأن قتلانا في الجنة^(١).

وهكذا كان ولاية بنى أمية وقادتهم وأنصارهم يدعون لهم دعوة تشبه دعوة الشيعة لأنتمهم. وقد تبعهم الشعراء يدعون في شعرهم نفس الدعوة، ويخيّل إلى الإنسان أنه لم تكن هناك بلدة ولا قبيلة إلا فيها شعراء لهم نزعة أموية. ففي مكة نجد أبا العباس الأعمى، وفي المدينة نجد الأحوص، وفي الكوفة نجد عبد الله بن الزبير الأستدي، وفي البصرة نجد جريراً والفرزدق، وفي الجزيرة نجد الأخطل والقسطامي وأعشى تغلب، وفي الشام نجد عددي بن الرقاع العاملي.

ومن الخطأ أن نحاول عدّ شعراء بنى أمية، فهم أكثر من أن يُسلمَ بهم إحصاء، فقد بلغوا عشرات إن لم يكونوا مئات، وتكتظ كتب الأدب العربي بهم وبأشعارهم، وليس هذا ما يهمنا إنما تهمننا الصورة التي صاغوا فيها مدائحهم للمؤمنين. ومن يرجع إلى ما قيل فيهم من أشعار يرى رأي العين أن هذه الصورة لُوتمت بعناصر دينية على نحو ما رأينا عند الخوارج والشيعة، فقد كان شعراؤهم يقررون دائماً حقهم وأفضليتهم في إرث النبوة، وأنهم أولى قریش بهذا الإرث، وأخذوا يُسبّثون ويعبدون في أن الله اختارهم لخلقه، واستمع إلى الأحوص يقول في الوليد بن عبد الملك^(٢):

تخيّرهُ ربُّ العباد لخلقهِ وليّاً وكان الله بالناس أعلماً
فهو يثبت له أن الله عز وجل اصطفاه لخلقه، وأنه وكل إليه شؤونهم يدبّرهما
كما يشاء، وانظر في هذه الأبيات يمدح بها عدي بن الرقاع الوليد بن عبد الملك،
فيقول^(٣):

صلّى الذي الصلّوات الطيّباتُ له
على الذي سبق الأقسامَ صاحبةً
هو الذي جمّع الرحمنُ أمته
إن الوليدَ أميرَ المؤمنين له
والمؤمنون إذا ما جمّعوا الجُمعاً
بالأجرِ والحسدِ حتى صاحبتهَا معاً
على يديّه وكانوا قبله شبيحاً
مُلكٌ عليه أعانَ اللهُ فارتفعاً

(٣) أغاني ١/٢٩٩.

(١) طبري ٢/٤٦٩.

(٢) أغاني ١/٢٩٨.

فأنت تراه يسمو بالوليد إلى شأوٍ بعيد من التقديس على نحو ما يسمو الشيعة بأئمتهم ، وتأمل في البيت الأول والثاني وما يصوغ عدى من الدعاء ، فهو يدعو الله أن يصلّي على إمامه الوليد ، ويدعو المسلمين كذلك أن يصلوا عليه في صلواتهم وجُمُعَتِهِمْ ، فقد جمع الله الأمة على يديه ، وأعانها ليرتفع بها إلى كل ما يريد لها من خَيْرٍ .

وعلى هذه الشاكلة كان شعراء بني أمية يتخلون في مدائحهم ، وسزى في موضع آخر كيف كان جرير خاصة من بين شعراء العراق ، يتخلو في مدحيه لعبد الملك وأولاده ، وكيف كان يُضَفِّي عليهم كل ما يُضَفِّيهِ الشيعة على أئمتهم من صفات روحية . ولم يقف الشعراء في هذه الصورة من المديح عند الخلقاء فحسب ، بل ذهبوا يُضَفِّفونها على ولاتهم وقوادهم ، واستمع إلى حارثة بن بدر الغُدّاني يقول في زياد بن أبيه (١) :

فَأَنْتَ إِمَامٌ مَعْدَلَةٌ وَقَصْدٌ وَحَزْمٌ حِينَ تَحْضُرُكَ الْأُمُورُ
أَخْرَجَ خَلِيفَةُ اللَّهِ ابْنَ حَرْبٍ وَأَنْتَ وَزِيرُهُ نِعْمَ الْوَزِيرُ
بِأَمْرِ اللَّهِ مَنْصُورٌ مُعَانٌ إِذَا جَارَ الرَّعِيَّةُ لَا تَجُورُ
وَكُنْتَ حَيًّا وَجِئْتَ عَلَى زَمَانٍ خَبِيثٍ ظَاهِرٍ فِيهِ شُرُورُ
فَلَمَّا قَامَ سَيْفُ اللَّهِ فِيهِمْ زِيَادٌ قَامَ أَبْلَجُ مُسْتَنْبِرُ

فأنت تراه يدعو معاوية خليفة الله ، ثم يُسَبِّحُ على زياد من الصفات الدينية ما يسبغه الشيعة على أصحابهم ، فهو إمام عادل ينصره الله ويُعِينُهُ ، حتى يَشْفِي العِراقَ مما فيها من شرور ، وإنه ليلقبه أخيراً بأنه سيف الله الذي أرسله إلى العراق رَحْمَةً بعباده . وفي صورة مماثلة لهذه الصورة كان الشعراء يملحون الحجّاج ، فالعُدَيْلُ بْنُ الْفَرَّخِ الْعِجْلِيُّ يَقُولُ فِيهِ (٢) :

بَنَى قُبَّةَ الْإِسْلَامِ حَتَّى كَأَنَّهَا هَدَى النَّاسَ مِنْ بَعْدِ الضَّلَالِ رَسُولُ
خَلِيلُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَسَيْفُهُ لِكُلِّ إِمَامٍ مُصْطَفَى وَخَلِيلُ

(١) طبري ٢/٧٨ .

(٢) الشعر والشعراء ص ٢٤٥ والأغاني (طبع الساسي) ٢٠/١٤ .

فهو ينعت أمير المؤمنين بأنه إمام ، وينعت الحجاج بأنه خليله وصيفه ، وهو سيف يصول بعون الله ، فيهدى الناس من بعد الضلال ، ويبنى قبة الإسلام سامقة تطاول عنان السماء . واستمع إلى أعشى همدان يقول في الحجاج بعد قضائه على ثورة عبد الرحمن بن الأشعث التي استعصت عليه طويلاً (١) :

أَبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتَمِّمَ نُوْرَهُ وَيَطْفِئَ نَارَ الْفَاسِقِينَ فَتَخْمُلُنَا
وَيُنْزِلَ ذُلًّا بِالْعِرَاقِ وَأَهْلِهِ لِمَا نَقَضُوا الْعَهْدَ الْوَثِيقَ الْمَوْكَدَا
وَمَا أَحْلَثُوا مِنْ بَدْعَةٍ وَعَظِيمَةٍ مِنَ الْقَوْلِ لَمْ تَصْعَدْ إِلَى اللَّهِ مَصْعَدًا
قَتْلَاهُمْ قَتَلَى ضَلَالٍ وَفِتْنَةٍ وَحَيْثِهِمْ أَمْسَى ذَلِيلًا مُطْرَدًا
وَمَا زَاحَفَ الْحِجَاجُ إِلَّا رَأَيْتَهُ مُعَانًا مُلْتَقَى لَلْفَتْوحِ مُعَوَّدًا

ومطلع الأبيات يستعيره الأعشى من قوله تعالى : (ويأبى الله إلا أن يتم نوره) وقد وصف جيش ابن الأشعث بأنه جيش فاسقين وأهل بغى وبدع وضلال وفتنة في الدين ، ولذلك كانت عاقبتهم الوبال والخسران المين ، وإنه ليملح الحجاج بأنه معان من الله يؤيده دائماً بنصره .

وفي صورة تشبه هذه الصورة كان الشعراء يمدحون قواد بني أمية ، سواء منهم من عمل في حروب الخوارج الداخلية ، ومن عمل في الحروب الخارجية ، في خراسان وغير خراسان ، واستمع إلى كعب الأشقرى يقول في المهلب في أثناء انتصاراته على الأزارقة في كرمان (٢) .

لَوْلَا الْمَهْلَبُ لِلْجَيْشِ الَّذِي وَرَدُوا أَنْهَارَ كِرْمَانَ بَعْدَ اللَّهِ مَا صَدَرُوا
إِنَّا اعْتَصَمْنَا بِحَبْلِ اللَّهِ إِذْ جَحَلُوا بِالْمَحْكَمَاتِ وَلَمْ نَكْفُرْ كَمَا كَفَرُوا
جَارُوا عَنِ الْقَصْدِ وَالْإِسْلَامِ وَاتَّبَعُوا دِينًا يَخَالِفُ مَا جَاءَتْ بِهِ النُّذُرُ

فكعب يرى الخوارج بما يرمون به المسلمين من العلول عن محجة الدين ، بل إنه ليكفرهم ، فقد جعلوا بمحكم القرآن الكريم ، وهو يشير بذلك إلى قوله عز وجل : (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آياتٌ مُحْكَمَاتٌ هنَّ أمُّ الكتاب)

فالخوارج كفروا - في رأى كعب - بهذه الآيات المحكمات التي تدعو إلى طاعة الله والرسول وأولى الأمر من المسلمين .

وأظن أنه قد اتضح الآن أن الشعر في عصر بنى أمية تطور تحت تأثير السيادة ، فإن الشعراء توزعوا على الأحزاب ، وأخذوا ينظمون شعرهم معبرين عن نظريات سياسية جديدة . وكان حزب الأمويين أكثر نَفَسًا ، وكان يليه حزبا الشيعة والخوارج . أما حزب الزبيريين فكان أقل الأحزاب شعراً وشعراء . وكان هذا الشعر السياسي يُصَبِّغُ بصبغة دينية ، لأنه في الواقع كان يتصل مباشرة بفكرة إمامة المسلمين وخلافتهم ، فطبيعي أن يصبَّ فيه الدين وأن تسيل منه أشعة إلى قصائده ونماذجه .

٤

الحياة الاجتماعية

لعل أول ما نلاحظه في هذا الصدد أن الحجاز والشام تميّزتا في هذا العصر بضروب من اللهو لم تُعْنَنَ بها البيئات الأخرى عنابتهما ، وكان على رأس هذه الضروب فنُّ الغناء كما أشرنا إلى ذلك في غير هذا الموضع .

فقد تكونت ، في الحجاز تحت تأثير الترف وفراغ كثير من الشباب للهو ، نظرية غناء شارك فيها العرب والموالي ، ولم تلبث هذه النظرية أن انتقلت إلى الشام ، إذ كان هناك اتصال دائم بين معنى الحجاز ومغنياته وبلاط الخلفاء .

ويخيل لمن يتصفح كتاب الأغاني أنه لم يعد للناس في مكة والمدينة في أثناء هذا العصر من عمل سوى السماع للغناء حتى العبيد والفقهاء كانوا يطلبونه . ويروى أن مالكا صاحب المذهب المعروف حاول في أول أمره أن يكون مغنياً^(١) ، واشتهر عطاء ابن جريرج من فقهاء مكة بإقبالهما على سماع المغنين^(٢) .

(٢) أغاني ٢٥٧/١ وانظر ٣١٦/١ .

(١) أغاني ٢٢٢/٤ .

ولم يلبث خلفاء بني أمية - إذ استثنينا معاوية - أن طلبوا هؤلاء المغنين ، وبالغ في ذلك يزيد بن عبد الملك ، فكان يرسل في طلب المغنين والمغنيات من الحجاز ، واشترى مغنيتين مشهورتين: إحداهما بأربعة آلاف دينار وهي حنابلة^(١) ، والثانية بعشرين ألفاً وهي سلامة القس^(٢) . ونشأ ابنه الوليد على مثاله فكان بلاطه يحتضن بالمغنين من مثل معبد ، ويحيى قيسل ، والهذلي ، والأبجّر ، وأبي كامل الغزيلي .

وإذا رجعنا نبحث في شعر الحجاز والشام لهذا العصر وجدناه في أكثره يؤلف هؤلاء المغنين ، فهو شعر غنائى بالمعنى الكامل ، إذ هو يعبر عن أحوال وجدانية ، فعظمه يدور حول قصة الحب ، ثم هو يؤلف ليغتنى فعلا ، وهذا هو معنى اكتماله من الناحية الغنائية .

وتستطيع أن ترجع إلى شعر عمر بن أبي ربيعة وابن قيس الرقييات والعرجي في مكة ، والأحوص في المدينة ، والوليد بن يزيد في دمشق ، لترى أن شعرهم جميعاً يعبر عن ذوق جديد وحضارة جديدة ، فهو شعر قيل تحت تأثير ترف لم يكن للعرب في الجاهلية عهد به ، فقد بنى العرب ، كما قلنا في غير هذا الموضع ، القصور ، واكتظت قصورهم بالجواري الأجنبية من كل لون ، وأترف ذوقهم وأترف شعورهم ، وعاش الموالى في خدمتهم ، وقاموا لهم على فن الغناء الذى كانوا يحبونه ، فأحكموه إحكاماً دقيقاً .

ومن هنا كان كل من يقرأ شعر هؤلاء الشعراء يحس بفوارق شديدة بينهم وبين آبائهم في الجاهلية ، فهم من إحساس جديد ، إحساس مترف عاش أصحابه عيشة متحضرة ، لا تتصل بشطف العيش ولا بخشونة الحياة ، وأقرأ شعرهم الذى يرويه صاحب الأغاني ، فستجده شعراً خفيفاً يطير عن الأفواه طيراناً ليحلق بالقلوب والآذان . وهو شعر كان يذهب كله في تصوير قصة الحب الحديثة في الحجاز والشام ، حب هذا الشباب المترف الذى أصبح قوام حياته التهالك على المرأة

(٢) أغاني (طبع دار الكتب) ٣٤٣/٨ .

(١) أغاني (طبع السامى) ١٣/١٤٩ .

وإظهار كل تَفَانٍ فيها وكل رِقَّةٍ شعور .

ونستطيع أن نجمل خصائصه في أنه شعرُ شبابٍ مُدُنٍ يسوقونه للمرأة ، وعلى الأخص المرأة التي يجذونها في دور الغناء . وكان كل منهم يحاول أن يسبق صاحبه في تصوير شعوره ودقة التعبير عنه . وفُتِنَتِ المغنياتُ بهذا الشعر الذي يُشيدُ بهن ويحكي حسنهن ومفاتنهن . والأحوصُ خيرُ مثالٍ يصور لنا ذلك ، فقد كان بعشق أكثر المغنيات في دار جميلة ، وهي أكبرُ دارٍ للغناء في المدينة ، بل في الحجاز كله في أثناء هذا العصر . وقلما تظهر مغنية في هذه الدار لا يكون له معها شعر ، وعشق ، وحب ، وهو القائل^(١) :

إذا أنت لم تَعَشَّقْ ولم تَدْرِ ما الهوى فكن حَجَرًا من يابس الصَّخْرِ جَلَمَدًا
فالحياة في رأى الأحوص ليست إلا العشق والهوى . وقد تحول إلى كل مغنية في بلدته يحاول أن يشرب معها كأسَ الحب صافية ، وتغنى في شعره غناءً حارًا بهذه الكأس وما أصاب منها . وارجع إلى أخباره في الأغاني فستجده يعشق حباةً وسلامًا اللتين اشتراهما فيما بعد يزيد بن عبد الملك ، كما يعشق مغنية أخرى تسمى عَقِيلَةَ ، ورابعة تسمى الذَّلْفَاءَ ، وفيها يقول^(٢) :

إنما الذلفاءُ همتى	فلَيْدَ عَنِّي مَنْ يَلومُ
أحسنُ الناسِ جميعاً	حين تمشى وتقوم
حَبِّ الذلفاءِ عندي	منطقٌ منها رَخمٌ
أصلُ الحبلِ لترضى	وهى للحبلِ صَرُومٌ
حبُّها في القلبِ داءٌ	مستكنٌ لا يَرِيمُ

فهو يحبها في جميع أحوالها حين تمشى وتقوم ، وحين تُغنى وتكفُّ عن الغناء ، وحين تَصِلُه وتكفُّ عن الوصل . فحبها مرض لا يستطيع الإفلات منه ، فهو مستقر في قلبه وفؤاده ، والذلفاء تارة تقبل عليه فتقبل عليه الدنيا ، وتدبر تارة ، فلا تزيده إلا هياماً بها وولتهاً .

وليس من ريب في أن هذا الشعر يعبر عن ذوق جديد ، فالقدماء لم يكونوا

(٢) أغاني (طبع دار الكتب) ٢٠٠/٨ .

(١) أغاني (طبع الساسي) ١٥١/١٣ .

يتهاككون على المرأة هذا التهاك الذي يتهاككه الأحوص ، لسبب بسيط ، وهو أنهم لم يكونوا مترفين ترف الأحوص وزملائه . وكانوا قلما أفردوا لها مقطوعات ، إنما كانوا يذكرونها غالباً في مُفْتَح قصائدهم ، ثم يتركزها إلى الموضوع الأساسي الذي يريدونه من مديح أو فخر أو نحو ذلك . أما الأحوص وأقرانه ، فقد أفردوا لها هذه المقطوعات وأنشأوها من أجلها إنشاءً ، وبذلك تحوّل الشعر العربي في الحجاز والشام هذا العصر من قصائد إلى مقطوعات ، تُقال في المرأة لتعبر عن أحداث ووقائع وجدانية حاضرة . فلم يعد الشبان ينشدون هذا الشعر الجزل الضخم الذي كان يُنشد حسان بن ثابت وغيره في سوق عكاظ ، بل أصبحوا ينشدون هذا الشعر السهل المتهافت الذي يُقال ليُغنى في دور اللهو والغناء ، يُغنى فيه طوّسٌ وسائبٌ وخاترٌ ومعبّدٌ وابن مسججٌ وابن سريجٍ والغريص ، كما يغنى فيه جميلةٌ وحبابةٌ وسلامةٌ وعقيلةٌ والذلفاء . وكل هؤلاء أجناب على العرب والعربية . فلا بد للشاعر أن ينزل بأساليب شعره إلى اللغة اليومية ، حتى يرضى ذوقهم . ونفس الصورة التي كان ينداع بها هذا الشعر ، وهي صورة الغناء ، جعلت أصحابه يميلون إلى الأساليب الشائعة حتى يرضوا ذوق المستمعين .

لم يعد الشعر العربي في الحجاز والشام يؤلّف في أثناء هذا العصر بالصورة القديمة ، إنما أصبح يؤلّف بصورة جديدة ، فهو من حيث أسلوبه يميل الشعراء به إلى سهولة مفرطة ، وهو من حيث موضوعه أصبح يختص بالحب وأحداثه ووقائعه المعاصرة ، وهو من حيث كميته أصبح مقطوعات لا تزيد عن عشرة أبيات إلا في القليل النادر . وليس هذا كل ما يميزه ، فقد كان هؤلاء المغنون والمغنيات يتناولون بعض أبياتهم بالإصلاح والتهديب فيضعون كلمة مكانه أخرى ، أو شطراً مكان آخر ، وقد يزيدون بعض الأبيات . ويتضح هذا من المقابلة بين ديوان ابن أبي ربيعة وكتاب الأغاني في المقطوعات التي غُنّيت من شعره ، إذ نجد اختلافاً كبيراً .

فهذا اللون الجديد من الشعر لم يكن فناً مستقلاً بنفسه ، بل كان فناً معتمداً على فن آخر هو الغناء وقد أخذ الغناء يؤثر فيه بصور مختلفة ، تارة عن طريق

تهذيب المغنين فيه ، وتارة عن طريق فرّضهم أحيانهم على الشعراء ، وكانوا يدخلون أحياناً أجنبية كثيرة^(١) ، وكانوا يطلبون إلى الشعراء ، من حين لآخر ، قطعاً من أوزان خاصة ، حتى يُغنّوا فيها^(٢) .

فشاعر المدينة ومكة ودمشق في هذا العصر لم يكن حُرّاً ، بل كان مقيداً بنظرية الغناء الجديدة التي وضعت حينئذ ورغبة أصحابها في بعض الألحان والأنغام التي قد تحتاج في الشعر إلى جهْر ومدٍّ في بعض الحروف وهمسٍ وتقصير في الحروف الأخرى ، وهو ما تعود العروضيون أن يسموه بالزحافات . ولا نشك في أن كثيراً من زحافات الشعر في هذا العصر أُريد بها تلبية حاجة مُغنّ من المغنين أو مغنية من المغنيات .

وكذلك الشأن في الأوزان نفسها فقد مال شعراء الحجاز والشام في هذا العصر إلى الأوزان الخفيفة من مثل الوافر والمزج والمستقارب والرمال والسريع والخفيف . وقد ينظمون في الأوزان الطويلة ولكنهم يعملون إلى تجزئتها . وشيء من ذلك كان موجوداً في العصر الجاهلي ، ولكن نلاحظ في هذا العصر الكثرة ، وأن الشعراء كما هجروا الأساليب الجزلة حاولوا أن يهجروا الأوزان المعقدة . كل ذلك ليصيبوا هوى المغنين والمغنيات ، حتى يتيحوا لهم الفرصة كي يصبوا في الشعر كل ما يريدون من ألحان وأنغام .

وعلى هذا النحو كان الشعر في الحجاز والشام هذا العصر يدور غالباً حول قصة الحب ، فهو شعر يكاد يذهب كله في الغزل . وكان هذا الغزل يؤلّف في لغة يومية مشتقة من لغة الناس الجارية ، ليس فيها بُعد ولا إغراب ، ولا لفظ ناب ، فقد كُتِبَ تحت ذوق متحضر جديد ، وتنادت به أصوات أجنبية من المغنين والمغنيات ، وعاش كثير من أصحابه أو كل أصحابه في مرافقتهم وملازمة دورهم وآلاتهم الوترية وطبوعهم الموسيقية ، فكان لذلك كله آثار مختلفة في هذا الغزل ، تناولت أساليبه ، وألفاظه ، وأوزانه .

(١) انظر الأغاني ١/٢٥٠ ، ٣٧٨ وكذلك

(٢) أغاني ٢/٢٣٧ وما بعدها .

وهذه الطبقة المترفة التي أنتجت حياتها الاجتماعية هذا الغزل الجديده كان يقابلها في الكفة الثانية من العرب طبقة عامة اتخذ أدبها وشعرها صوراً مخالفة . فنحن إذا ما تركنا الحجاز والشام ومدنهما الكبيرة إلى نجد وجدنا العرب هناك يعيشون ، كما كان آباؤهم في الجاهلية ، معيشةً فيها شتَطَفُ وحرمان ، وقد مسح عليها الدين الجديده بروحية أحدثت سمواً في النفوس ، وسمواً في الشعر نفسه . وشاع في هذه البيئة الغزل ، ولكنه تميّز فيها تميزاً واضحاً عن غزل مكة والمدينة ، فقد كان الناس فيهما - كما قدمنا - مترفين وعرفوا فنوناً من الحضارة المادية التي دخلت عندهم من فارس والروم ، فكان في شعرهم لذلك شيء من الحرية والإباحية . أما في البادية فكان الغزل عفيفاً ، لأن العرب هناك لم يعرفوا الترف ولا أنسلتوهم الحضارة ، وقد رقت الإسلام نفوسهم وصفأها ، فكان طبيعياً أن لا يكون غزلهم إباحياً صريحاً ، بل يكون غزلاً متسامياً ، فيه نُبَلٌ ، وفيه حرمان ، وفيه طهارة ، وارتفاع عن الحس والمادة .

ويقص لنا الرواة دائماً أن العاشق من هؤلاء النجديين سواء كان من بني عذرة أو من بني عامر أو من غيرها من القبائل كان يُصْنَعُ من لقاء صاحبتة ، بل كانت تحرم عليه تحريمًا حين يشدو باسمها ويتغنى بجمها . وكان ذلك في رأيهم هو سبب هذه العقدة التي يحسها من يقرأ غزلهم ، فهو غزل مضطرم في قلوبهم أبدًا ، ظامئٌ أبدًا . متلهف على لقاء المحبوبة تلهفًا لا يزال بنفري منهم حتى يجنوا جنونًا أو يهلكوا هلاكًا دون أن يبتهجوا بوصولٍ أو يسعدوا بقربٍ ، وهم يثنون لهذا الحرمان ويبكون ويتفجعون .

وفي رأينا أن هذه العقدة التي فسر بها الرواة هذا الحب العذري الطاهر المحروم إنما هي عقدة اصطنعوها اصطناعاً ، فإن الإسلام لا يحرم زواج المحب لمحبوبته ، وما كان العرب ليقيموا سنةً لا يعرفها الإسلام ولا جاء بها .

وتصور هذا الحب العذري أتم تصوير الأشعار المنشورة في ترجمة مجنون ليلي العامري بكتاب الأغاني ، فإنها تقص هذا الحب اليأس الذي لا يستطيع المحب فيه أن يلتقي صاحبتة وينعم طرفة بجمها الرائع على نحو ما نرى في مثل قوله :
وأحبيسُ عنك النفسَ والنفسُ صَبَّةٌ بذكراكِ والدمشقي إليكِ قريبُ

وقوله :

أقول لأصحابي هي الشمسُ ضوءها قريبٌ ولكن في تناولها بُعدُ

وقوله :

وأصبحتُ من ليلي الغدَاةَ كناظِرٍ مع الصُّبْحِ في أعقابِ نَجْمٍ مُغْرَبٍ

وقوله :

يسموني المجنونَ حين يروني نَعَمُ بي من ليلي الغدَاةَ جنونُ

وراء هذه الأبيات أشعار كثيرة تصف كيف ملك جمالُ ليلي منه حسنه وعقله وقلبه منذ أن كانا صبيين يرعيان الأغنام ، يقول :

تعلقتُ ليلي وهني ذات تمامٍ ولم يبدُ للأتراب من ثديها حسنٌ
صغيرين نرعى البهَمَ يا ليت أننا إلى اليوم لم نكبّرَ ولم تكبر البهَمُ

وما يزال يصور لوعته من حبها ويبكيها بكاء كله تفجع وحسرة ويأس قاتل من لقاءها ، على نحو ما نرى في مثل قوله :

نَهَارِي نَهَارُ النَّاسِ حَتَّى إِذَا بَدَأَ لِي اللَّيْلُ شَاقَّتَنِي إِلَيْكَ الْمَضَاجِعُ
أَقْضَى نَهَارِي بِالْحَدِيثِ وَبِالْمَنَى كَمَا ثَبَّتَ فِي الرَّاحَتَيْنِ الْأَصَابِعُ
لَقَدْ ثَبَّتَ فِي الْقَلْبِ مِنْكَ مَحَبَّةٌ

وقوله :

تَمُرُّ اللَّيَالِي وَالشُّهُورُ وَتَسْتَقْضِي
أَعْدُ اللَّيَالِي لَيْلَةً بَعْدَ لَيْلَةٍ
وَأَنْتِ الَّتِي إِنْ شِئْتَ أَشَقَيْتِ عَيْشِي
أَمْضِرُوبَةً لَيْلِي عَلَى أَنْ أَزُورَهَا
هِيَ السَّحَرُ إِلَّا أَنْ لِسَّحَرِ رُقِيَّةَ
وَجَبُّكَ لَا يَزْدَادُ إِلَّا تَمَادِيَا
وَقَدْ عَشْتُ دَهْرًا لَا أَعْدُ اللَّيَالِيَا
وَإِنْ شِئْتَ - بَعْدَ اللَّهِ - أَنْعَمْتَ بِالْيَا
وَمَتَّخِذَ ذَنْبًا لَهَا أَنْ تَرَانِيَا
وَإِنِّي لَا أَلْتَقِي لَهَا الدَّهْرَ رَاقِيَا

وقوله :

وداعٍ دَعَا إذ نحن بالخَيْفِ من منى فهِيجَ أشجان الفؤاد وما يَدْرِي
دعا باسم ليلى غيرَها فكأتما أطارَ بليلى طائراً كان في صدري
ويختلط عقله وبهيم في البرية مع الوحش يأكل مما تأكل ويشرب مما تشرب ،
ويلقاه الناس صدفة ، فلا يحدثهم إلا عن ليلى وعن جنونه في خبيها :
وإني لمجنونٌ بليلى موكلٌ ولستُ عززوفاً عن هواها ولا جلدأ
إذا ذُكرتُ ليلى بكيتُ صبابةً لتذكارها حتى يبسلَ البُكا الخدأ
ويرى صورتها في كل ما حوله من أماكن وربوع وظباء ووحش ومن بدور
وشمس ، ويتغنى بكل ما يهب على ديارها من رياح صباً وغير صباً ، وبكل
ما يراه من سحب وسيول وبروق وأزهار وحُمول ، وما كان يشجيه شيء كنوح
الحمام ، فقد كان يذرى دموعه إذراء شديداً . وما يزال في ذلك حتى يهلك
عشقاً وجباً .

ولا تظن أن مجنون ليلى شخصية حقيقية ، فقد كان الرواة القدماء أنفسهم
ينكرونه ، كما حدثنا صاحب الأغاني في ترجمته ، بل كان العرب أنفسهم ينكرونه
ويقولون إن المجانين كثير ، وكأتما اتخذته النجديون رمزاً يضيفون إليه هذا الغزل
العذري العفيف الذي كان يجري على ألسنتهم . ومعنى ذلك أن هذا الغزل الذي
نقروه في الأغاني والذي يضاف إلى مجنون ليلى وأضرابه مثل قيس بن ذريح وعروة
ابن حيزام ليس من عمل شاعر بعينه ، وإنما هو من عمل الجماعة النجدية في
عصر بني أمية يشترك فيه كثيرون مجهولون لم يكن يعينهم في قليل ولا كثير أن
تُعرف أسماءهم ويشتهروا في الناس .

ولعل في هذا ما يلفتنا إلى أن هذا الغزل العذري العفيف الذي شاع حينذاك
إنما كان ضرباً من الأدب الشعبي المبكر في اللغة العربية فأصحابه مجهولون . وقد
صحبته أقاصيص كثيرة ، فلم يكن شعراً خالصاً ، بل كان شعراً ونثراً ، وكان
النثر والشعر أو كان القصص والشعر يدوران على ألسنة النجديين هذا الدوران الذي
نعرفه للأدب الشعبي ، إذ يجري على كل لسان . وحتماً كان بين هؤلاء العذريين
من أثبتهم التاريخ مثل جميل صاحب بئينة وكثير صاحب عترّة ، ولكن ما نُسب
إليهما وإلى أضرابهما شعراً أو قصصاً لا يقاس من حيث الروعة إلى ما نُسب إلى

الأشخاص الأسطوريين من مثل مجنون ليلي وقيس بن ذريح صاحب لبنتي وعروة بن حزام صاحب عقراء .

وهذا الغزل العذري أو العفيف الذي شاع في نجد وبادي الحجاز كان يرافقه شعر آخر يقال في تخاصم القوم على المياه والمراعى ، وقد يتحول إلى هجاء على نحو ما كان شأنهم في الجاهلية ، ولكن على العموم كان نشاط الشعر ضيقاً في هذا المجال .

وإذا تركنا نجداً إلى العراق ومدينتيه الكيرتين البصرة والكوفة اللتين اختطهما عمر هناك وجدنا العرب الذين نزلوا فيهما يشتغلون طوال هذا العصر بالحروب والفتوح ، حروب الخوارج وفتوح خراسان والهند . فلم يكونوا آمنين مستقرين بل كانوا دائماً على أهبة القتال والاشتراك في البعث التي يرسلها زياد والحجاج وخالد القسريّ لتعقب الخوارج أو فتح مدن الترك في خراسان وما وراء النهر .

ومن أهم ما يلاحظ في تكوين الكوفة والبصرة أنه لم يتم للعرب فيهما اندماج تام ينسوّن فيه حياتهم القديمة ، فقد نزلوا فيهما قبائل ، كل قبيلة لها منازلها ، فكانت تميم مثلاً تتزل في جانب ، وهكذا أسد وبكر والأزد وهلم جراً . فن هذه الناحية لم يتم تكوين الكوفة والبصرة مدينتين كاملتين ، لكل منهما فرديتها وتمازج أهلها بل استمر سكانهما يشعرون أنهم قبائل ، وإن عاشوا في المدن ، وخدمهم الأعاجم .

ومن هنا غلب على الحياة في البلدين طابع الحياة الجاهلية . وإذا كانت المدينة في الحجاز مثلاً اشتهرت بدار جميلة حيث المغنون والمغنيات فإن البصرة اشتهرت بالمربد ، كما اشتهرت الكوفة بالكُناسة ، وهما سوقان عامتان على نحو ما كانت سوق عكاظ في الجاهلية .

وذاع صيت المربد خاصة في هذا العصر حيث كانت تتحلّق القبائل حول شعرائها ، فلجري حلقته ، وللفرزق حلقته^(١) ، ويومّ الناس هاتين الحلقتين وغيرهما من الحلقات^(٢) التي كانت تنعقد هناك كل يوم ، ليستمعوا إلى ما ينشد الشعراء ، وخاصة في العصبية القبلية .

(٢) أغاني (طبع دار الكتب) ١٢/٥ ،
١٥٢/١٠ و(طبعة السامى) ١١٢/١٦-١١٤

(١) أغاني (طبع دار الكتب) ٢٩/٨ ،
٧٧/٨ .

وكانت هذه العصبية هي كل حياة القوم الاجتماعية وما يتصل بها من هو وعبث ، فقد أمضوا أوقاتهم هناك يثيرونها ويتحدثون فيها ، ويتعقبون بأحاديثهم ما كان منها في الجاهلية وما اتصل منها في الإسلام ، وكأنما ذهبت أدراج الرياح وصايا النبي صلى الله عليه وسلم في العرب وما دعا إليه من نبذ التفاخر والتكاثر من مثل قوله في خطبة حجة الوداع :

« أيها الناس ! إن الله تعالى أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء ، كلكم لآدم وآدم من تراب » .

وليس من شك في أن هذا مشل* أعلى أراده الإسلام للعرب ، حتى تجتمع كلمتهم ولكنهم لم يكادوا يطمثون بعد فتوح أبي بكر وعمر وعثمان ، حتى عادوا إلى دعوى الجاهلية ، وإلى منازعاتهم العصبية . وعمل على تأجيج نار هذه العصبية ما كان من تحارب القبائل في صيفين وقبل صيفين في موقعه الجميل ، فاشتعل ما كان خبيثاً في نفوسهم ، وعادوا إلى التنازع بالألقاب والفخر بالآباء . وفي الظاهر كان على معاوية يقتتلان ، وفي الباطن كانت القبائل تتكتل حسب خصوماتها الجاهلية ، فعاوية معه قضاة وكتائب اليمينتان ومعه تغلب ، وعلى معه قيس* ، ومعاوية معه قريش ، وعلى معه الأنصار .

ويفرغ أهل الكوفة والبصرة من حرب صيفين أو حرب على ومعاوية ، ليشتعلوا نار هذه العصبية ، وليتخذوها لهم ولعبيهم . وسرعان ما أخذت شكل فخر وهجاء في نطاق لعل العصر الجاهلي لم يظفر به ، فقد كان شعراء القبائل في الجاهلية يتفاخرون ويتهاجون ومنازلهم بعيدة ، أما اليوم فهم مصطفون بعضهم أمام بعض ، وكل قبيلة تستحث شعراءها ، ليرموا خصومها بهذه السهام اللاذعة . وبذلك أخذ الهجاء في العصر الأموي شكلاً أعنف من شكله في العصر الجاهلي ، فقد اصطفت القبائل وجماهيرها في حلقات بالدرربد والكناسسة ، والناس يقبلون على هذه الحلقات للفرجة وكل قبيلة تحاول أن تستخرج من شاعرها أحداً ما في جعبته من سهام ، حتى ترش بها القبائل التي عادتتها قديماً ، ولا تزال تعاديتها حديثاً .

وكان هذا المهجاء هو الشغل الشاغل للطبقة الفارغة من العرب في العراق حين يهدأون فلا ينتفضون على الدولة ولا يخرجون في حرب ولا بعوث ، فترى الناس يتجمعون في الكناسة والمربد ليلتو لهم شعراؤهم هذه الصحف المثيرة ، صحف مفاخرهم ومبازلِ خصوصهم ، وهم من حولهم يصفرون ويصفقون .

وقد طالمت المسافة بيننا وبين من عاشوا في العراق في أثناء هذا العصر الأموي ، وأصبحنا لا نعرف الآن معرفة دقيقة ما كان لهذه الحصومات وما صاحبها من فخر وهجاء من تأثير في نفوس القوم ، ولكن من يتابع تاريخ العرب في الجاهلية والإسلام يراهم يخشون بأس الشعراء خشية شديدة . ويوضح ذلك من بعض الوجوه ما يُروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بدأ حسان بن ثابت يهجو قريشاً فقد قال له : « لهذا أشدُّ عليهم من وقع النبلِ »^(١) وقصة الحطبيثة مع الزبيرِ قان بن بدر مشهورة ، فقد هجاه ، فاستعدى عليه عمر بن الخطاب ، فحبسه ، ثم عفا عنه بعد شعر كثير ، يستعطفه فيه على أطفاله^(٢) .

ويظهر أن هذا المهجاء طبع رُكِّب في العرب ، فإن الإنسان لا يسمع بشريف من أشرافهم في الجاهلية والإسلام إلا وقد سلط الشعراء عليه نبال هجائهم ، يقول الجاحظ : « وإذا بلغ السيد في السؤدد الكمال حسده من الأشراف من يظن أنه الأحق منه ، وفخرت به عشيرته ، فلا يزال سفيه من شعراء تلك القبائل قد غاظه ارتفاعه على مرتبة سيد عشيرته فهجاه . ومن طلب عيباً وجده ، فإن لم يجد عيباً وجد بعض ما إذا ذكره وجد من يغلط فيه ، ويحمله عنه ، ولذلك هُجِّيَ حصن بن حديفة ، وهُجِّيَ زُرارة بن عدس ، وهُجِّيَ عبد الله بن جدعان وهُجِّيَ حجاج بن زُرارة »^(٣) .

فالجاحظ يقرر أن المهجاء كان شيئاً عاماً عند العرب وأن بيتاً شريفاً لم يخجلُ منه فهو قصاصُ الشرف في نفوس الأعداء للقبيلة ، وهو سبيل الظلم لها إن انتصرت عليهم في حرب أو سبقهم في فضل . وقد ذهب يقرر في وضوح أن القبيلة الشريفة يكون فيها خبيرٌ كثيرٌ وشرٌ كثيرٌ ، وبذلك تكون معرضاً للهجاء .

(٣) الحيوان ٩٣/٢ .

(١) أغاني ١٤٣/٤ .

(٢) أغاني ١٧٩/٢ وما بعدها .

أما القبيلة الوضيعة فلا تذكر بخير ولا شر ، وتدخل في صغار الناس ، فحلُّ أهلها محلُّ مَنْ لا يغيظ الشعراء ولا يحسداهم الأكفاء . واسترسل يعدّد القبائل الشريفة في العرب فقال : « القبائل المتقدمة الميلاد التي في شطرها خير كثير ، وفي الشطر الآخر شرٌّ وضعة مثل قبائل غَطَفَانَ وقيس عَيْلَانَ ، ومثل فزارة ومُرَّة وتعلبة ، ومثل عَبَسَ وعبد الله بن غَطَفَانَ ، ثم غَنَى وباهلة . . . والشرف والخطَر في عَبَسَ وذُبَيْبَانَ ، والمبْتَسَى والمَلَقَى والمحروم والمظلوم مثل باهلة وغَنَى مما لقيتا من صوائب سهام الشعراء وحتى كأنهما آلة لمدارج الأقلام ينكبّ فيها كل ساع ، ويعثرُ بها كل ماش . . حتى صار من لا خير فيه ولا شر عنده أحسنَ حالاً ممن فيه الخير الكثير وبعض الشر . . ومن هذا الضرب تميم وثور وعُكْل وتَيْم ومُزَيْنَة ، ففي عكْل وتَيْم ومُزَيْنَة من الشرف والفضل ما ليس في ثور . وقد سلمت ثور إلاّ من الشيء اليسير ، مما لا يرويه إلاّ العلماء ، ثم حلتّ البلية وركد الشر والتحقّف الهجاء على عكْل وتيم . وقد شعثوا بين مزينة شيئاً . وقد نالوا من ضبّة مع ما في ضبة من الخصال الشريفة . . . وكذلك بَلْعَنَبِر قد ابتليّت وظلّمت وبُخِست مع ما فيها من الفرسان والشعراء ، ومن الزهاد ومن الفقهاء ، ومن القضاة والولاة ، ومن نوادر الرجال إسلاميين وجاهليين . وقد سلّمت كعب بن عمرو ، فإنه لم ينلها من الهجاء إلاّ الخَمْشُ والتتّف . ولأمر ما بكت العرب بالدموع الغرّار من وقع الهجاء^(١) .

والجاحظ يستعرض في هذه الفقرة البديعة ما كان بين العرب في العصرين الجاهلي والأموي من هجاء استطارت نيرانه . وقد استعرت هذه النيران في العراق بالمرّبّد والكُنّاسة ، فكل شاعر لقبيلة من هذه القبائل التي عدها الجاحظ يستحدث حجراً كبيراً يقذف به خصومها ، وينهض له خصم من القبيلة ، قيرد حجره إلى رأسه ورأس قبيلته .

وهكذا احتدمت هناك العصبية ، وهي عصبية كانت تقوم بين الأصول والجرائيم الكبيرة من العرب ، كما تقوم بين الفروع والشعب الصغيرة ، فمُضَر تُضَعِّضُ من اليمن ، وتستمر هاتان العصبيتان الكبيرتان بين المضربة واليمنية ، ثم

تنقسم مضر أقساماً أهمها تميم وقيس وربيعة وفرعيها : بكر وتغلب . وكل قسم من هذه الأقسام ينقسم إلى شعب وخصون ، وقد تطاحت الشعب والغصون القيسية بأقوى وأعنف مما تطاحت الشعب والغصون في الأقسام الأخرى .

وعلى هذا النحو كان لكل قبيلة ، بل لكل بطن من قبيلة في البصرة والكوفة شعراء ينافحون عنه في هذه الحرب اللسانية الداخلية التي أُشريت فيها أسنة الشعر ، وتراعى فيها الشعراء من كل جانب بالنبال والسهام . وفي الأغاني صور من ذلك كثيرة ، فمساور العبسي يتهاجى مع المرار الفقعسي الأسدي^(١) ، وابن ميادة الذيباني يتهاجى مع الحكم الخضري المحاربي^(٢) ، ويتهاجى زياد الأعجم مولى عبد القيس مع كعب الأشقرى^(٣) ، ومع المغيرة بن حبتاء التميمي^(٤) .

ونفذ في أثناء ذلك جرير والفرزدق من جهة وجرير أيضاً والأخطل من جهة ثانية إلى أهاج كانت تلقى في مسرح المربد ، وكانت تأخذ شكل لعبة طريفة يتجمع الناس لمشاهدتها والفرجة عليها . وسميت هذه الأهاجى بالنقائض ، وسنعرض لها في الفصل التالى ونكشف عما فيها من جديد ، فقد استطاعوا أن يحولوا فن الهجاء الجاهلى إلى فن النقائض الأموى ، واتخذوه ليسلوا به هذه الجماعة الفارغة في العراق .

وكان يعيش مع هذه الطبقة العامة من العرب والطبقة الأرسقراطية السابقة طبقة ثالثة من الأجانب ، وهم الموالى . وكانوا كثيرين في المدن الإسلامية ككرة ظاهرة ، إذ كانوا يبلغون في الكوفة والبصرة نحو نصف السكان .

وكثير من هؤلاء الموالى كان من أسرى العرب في الحروب ومغانمها ، وقد عاشوا معهم ، لخدمتهم ، فالعرب إذاً كانوا سادتهم ، وكانوا يشعرون دائماً بهذه السيادة عليهم ، فهم أتباعهم وقد قاموا لهم على الزراعة والصناعة والحرف والمهن المختلفة .

(٣) أغاني (طبع دار الكتب) ٢٨٧/١٤
٣٩٣/١٥
(٤) أغاني ٩٩/١٣ .

(١) أغاني (طبع دار الكتب) ٣١٨/١٠
(٢) أغاني (طبع دار الكتب) ٢٨٣/٢
وما بعدها .

وعلى الرغم من أن الإسلام دعا إلى نزع الفوارق بين الطبقات في الأمة ، فقال جلّ شأنه : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع : « ليس لعربي على عجمي فضلٌ إلا بالتقوى » . على الرغم من ذلك نرى العرب في العصر الأموي ينظرون إلى هؤلاء الموالى نظرة السادة إلى العبيد . ففي حوادث ثورة المختار الثقفي حين ثار في الكوفة ودعاً لابن الحنفية وثار معه الموالى ثم هزمهم مصعب بن نهض معه من أهل البصرة سُخْطاً على المختار لأنه سوى بين هؤلاء الموالى وبين عرب الكوفة في الحقوق ، في هذه الحوادث نجد الطبرى يروى عن الشَّعْبِيّ أنه قال : « دخلت البصرة ، فقعدت إلى حَلَقَةٍ فيها الأحنُف ابن قيس ، فقال لي بعض القوم : من أنت ؟ قلت : رجل من أهل الكوفة ، قال : أنتم موال لنا ، قلت : وكيف ؟ قال : قد أنقذناكم من أيدي عبيدكم ، من أصحاب المختار (١) » .

فالعرب في عصر بني أمية رفضوا نظرية الإسلام التي تدعو إلى التسوية بين الشعوب والقبائل ، ونظر نفر منهم إلى الموالى نظرة السيد إلى عبده ، وقد أقاموهم على خدمتهم في السلم . أما في الحرب فيلاحظ قلّهـوزن أنهم كانوا يأخذونهم معهم إذا حاربوا ، ولكنهم كانوا لا يركبون الخيل مثلهم ، إنما يحاربون بين أيديهم رجالة ، ويقول إن ذلك يذكّر بالفرسان وخدمهم في العصور الوسطى (٢) ، ولكن لعل ذلك حدث لأنهم لم يكونوا فعلاً أهل فروسية وخيل .

وفي العقد الفريد فصل يصور فيه ابن عبد ربه معاملة العرب للموالى ، وربما كان كثير مما رواه مبالغاً فيه ونراه يقول : « قدّم نافع بن جبّير بن مطّعم رجلاً من الموالى يصلّي به ، فقالوا له في ذلك ، فقال إنما أردت أن أتواضع لله بالصلاة خلفه ، ويقال إن نافع بن جبّير هذا كان إذا مرت به جنازة قال : من هذا ؟ فإذا قالوا : قرشي ، قال واقواماه ، وإذا قالوا عربي ، قال وابلدناه ، وإذا قالوا موالى ،

وانظر الطبرى ٧٢١/٢ .

(١) طبرى ٦٨٤/٢ .

(٢) كتاب قلهوزن السابق ص ٢٤٦

قال : هو مال الله يأخذ ما شاء ويدع ما شاء . وكانوا يقولون لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة : حمار أو كلب أو مولى ! . وكانوا لا يكتنونهم بالكُنْتَى ولا يدعونهم إلا بالأسماء والألقاب ، ولا يمشون في الصفِّ معهم ، ولا يتقدمونهم في الموكب ، وإن حضروا طعاماً قاموا على رؤوسهم ، وإن أطعموا المولى لسِنَّه وفضله وعلمه أجلسوه في طريق الخبَّاز ، لئلا يخفى على الناظر أنه ليس من العرب . ولا يدعونهم يُصَلُّون على الجنائز إذا حضر أحد العرب . وكان الخاطب لا يخطب المرأة منهم إلى أبيها ولا إلى أخيها ، وإنما يخطبها إلى مولاها فإن رضى زَوْج ، وإلا رَدَّ ، فإن زَوْج الأب والأخ بغير رأى مواليه فُسخ الزواج . . . ورُوِيَ أن عامر بن عبد القيس في نسكه وزهده وتقشفه وإخباته وعبادته كلَّمه حُمران مولى عثمان بن عفان عند عبد الله ابن عامر صاحب العراق في تشجيعه على عثمان وطعنه عليه ، فأنكر ذلك ، فقال له حمران : لا كثرَ الله فينا مثلك ، فقال له عامر : بل كثرَ الله فينا مثلك ، فقيل له : أيدعو عليك ، وتدعو له ؟ ! قال : نعم يكسحون طرقتنا ، ويسخرون خفافنا ، ويحكون ثيابنا^(١) .

ولا نشك في أن في هذه الأخبار والروايات كثيراً من المبالغة، ولكن من الحق أن الموالى كانوا طبقة ثالثة في المجتمع العربي في أثناء هذا العصر ، ومن المؤكد أنهم أدوا دوراً عظيماً حينئذ في خدمة الدين والثقافة الإسلامية ، فكان أكثرُ حملة العلم والدين منهم ، وكذلك كان منهم شعراء اشتهروا في هذا العصر مثل زياد الأعجم مولى عبد القيس وأبي العباس الأعمى الشاعر المكي مولى بنى الدثيل ، ويزيد بن ضبة مولى ثقفيف ، وقد خسرَ جت أسرة يُسَار النَّسَائِي في المدينة غير شاعر .

وإذا أخذنا نبحث شعر هؤلاء الموالى وجدنا أكثره يذهب في المديح . وهذا طبيعي فنزلتهم متأخرة في الحياة ، وهم في حاجة إلى المال ، فلزموا الخلفاء والأمراء والأجواد المشهورين يمدحونهم ، لينالوا عطاءهم .

وقد لُوِّن شعرُ نفرٍ منهم بنزعة شعبية ، جاءت من موقف العرب إزاءهم ومحاولتهم إذلالهم فكان ذلك سبباً لثورة نفسية كتبوها ، أو كتبتها معظمهم ، وأفصح عنها بعضهم من حين إلى حين . فالمصدر لا بد له أن ينسفت . وأهم

شاعر اشتهر بهذه النزعة في العصر الأموي إسماعيل بن يسار النسائي ، وقد ترجم له أبو الفرج ترجمة طريفة في الأغاني ، وروى طرفاً من شعره الشعبي ، فن ذلك قوله (١) :

رُبَّ خَالٍ مَسْوَجٍ لِي وَعَمِّ
 مَاجِدٍ مُجْتَدِي كَرِيمٍ النَّصَابِ
 إِنَّمَا سُمِّيَ الْفَوَارِسُ بِالْفَرِّ
 مِنْ مِضَاهَاةٍ رَفِيعَةِ الْأَنْسَابِ
 فَاتْرَكِي الْفَخْرَ يَا أُمَامَ عَلَيْنَا
 وَاتْرَكِي الْجَوْرَ وَانْطِقِي بِالصَّوَابِ
 وَاسْأَلِي إِنْ جَلِهْتَ عَنَّا وَعَنْكُمْ
 كَيْفَ كُنَّا فِي مَالِ الْأَحْقَابِ
 إِذْ نُرَبِّي بِنَاتِنَا وَتَدَسُّو
 نَ سَفَاهَاً بِنَاتِكُمْ فِي التَّرَابِ

وهذه نزعة شعبية واضحة ، فإسماعيل لا يحاول أن يفخر بالفارس فقط ، بل يحاول أن يضعهم فوق العرب ، إذ يرجع إلى التاريخ القديم في الجاهلية ، وما كان العرب فيه من فوضى ، وما كان لقومه من ملوك متوجين . ونراه يشير إلى ما كان عليه العرب من غِلظ وجفوة ، إذ كانوا يثدنون بناتهم .

ويظهر أن إسماعيل لم يكن يُخفي هذه الشعبية ، فقد روى صاحب الأغاني أنه دخل على هشام بن عبد الملك في خلافته وهو بالرصافة جالس على بركة ماء في قصره ، فاستنشه ، وهو يظن أنه يُنشده مدحاً له ، فأنشده قصيدة له يفخر فيها بالعجم ، حتى انتهى إلى قوله :

إِنِّي وَجَدْتُكَ مَا عُدِي بَدَى خَوْرٍ
 عِنْدَ الْحِفَافِ وَلَا حَوَاضِي بِمَهْدَوْمِ
 أَصْلِي كَرِيمٌ وَمَجْدِي لَا يُقَاسُ بِهِ
 وَبِي لِسَانٌ كَحَدِّ السِّيفِ مَسْمُومِ
 أَحْمِي بِهِ مَجْدَ أَقْوَامِ ذَوِي حَسَبِ
 مِنْ كُلِّ قَرَمٍ بِنَاجِ الْمَلِكِ مَعْمُومِ
 جِحَاجِحِ مَادَةِ بُلُجِ مَسْرَازِبَةِ
 جُرْدِ عِتَاقِ مَسَامِيحِ مَطَاعِمِ
 مِنْ مِثْلِ كَسْرِي وَسَابُورِ الْجَنُودِ مَعَا
 وَالْهَرْمَزَانِ لِفَخْرٍ أَوْ لِعَظِيمِ
 أَسْدُ الْكُتَابِ يَوْمَ الرَّوْعِ إِنْ زَحَفُوا
 وَهُمْ أَذَلُّوا مَلُوكَ التَّرِكِ وَالرُّومِ

فغضب هشام وقال : « أعلى تفخر وإيأى تشد قصيدة تمدح بها نفسك وأعلاج قومك ؟ » ثم أمر أن يرموه في الماء ، فرموه وغطوه ، حتى كادت نفسه

تخرج ، ثم أمر بإخراجه ، ونفاه من وقته إلى الحجاز^(١) . وطبعي أن يُضرب ويُحرّم ويُطرّد في هذا العصر الذي كانت الدولة تتعصب فيه لكل ما هو عربي ، كما كانت تحارب كل نزعة ترى إلى الغَضِّ من شأن العرب وحطّهم ورفّع غيرهم عليهم ، وإنما اتسعت الشعوبية أو هذه القومية العنصرية في العصر العباسي حين ضَعُف شأنُ العرب وقَوِيَ شأنُ الفرس ، وارتفع نجمهم .

ولعل في كل ما تقدم ما يدل في وضوح على أن الشعر في هذا العصر الأموي تطوّر مع تطور حياة العرب الاجتماعية وما كان فيها من طبقات ، بعضها فوق بعض . فالمال والموقف العرب منهم وشعوبيتهم ، والعرب وعصبياتهم وما انطوى فيها من فخروهجاء ، وقريش وترفها وغناؤها وغزها ، كل ذلك مُصَوَّرٌ في الشعر الأموي أروع تصوير .

٥

الحياة الاقتصادية

من أهم العوامل في تكوين نفسية الفرد حياته الاقتصادية ، فالذين ينعمون بالراحة ، ويتوفر لهم نعيم الدنيا شأنهم في شعرهم غير شأن الذين حرّموا هذه الراحة وذلك النعيم بسبب اختلاف المؤثرات المادية الواقعة على نفسياتهم .

فهؤلاء المترفون من قريش الذين تحدثنا عنهم في الحياة الاجتماعية كان شعرهم صدق حياتهم المترفة وثمرة مباشرة لما نعموا به . وكان يقابلهم في الصحراء رجال لم ينعموا بدنياهم نعيمهم ، فاصطبغ غزهم بصبغة حزينة ، وكأنهم يستمدون من متعين للحرمان ، ولا شك في أنه دخلت في شعرهم تأثيرات روحية من الإسلام ، ولكن لا شك أيضاً في أنه كان للتأثيرات الاقتصادية نتائج مهمة في نفوسهم ، فما حياة الفرد التي نشاهدها في أغلب صورها لإملاءة بينه وبين الطاقة الاقتصادية التي يستطيعها ، والتي يعيش ويتحرك داخلها ، فهي التي ترسم له خطوط هذه الحياة ومباهجها أو متاعها .

ونحن إذا تأملنا في ظواهر الحياة لهذا العصر الأموي وجدنا الجانب الاقتصادي

(١) أغاني ٤٢٢/٤ وما بعدها .

يتغلغل في صميم كل ظاهرة منها حتى الاتجاهات الروحية في الأفراد يمكن أن تعلق من بعض جوانبها بعقل اقتصادية ، وإذا كان المال والترف هما اللذان أثمرتا في نهاية هذا العصر الوليد بن يزيد شاعرَ الخمريات ، فما لا شك فيه أن البؤس والفقر يدفعان في كثير من الأحوال إلى الكسب ، وقد ينتهيان بالإنسان إلى الزهد في متاع الدنيا والتعلق بالنسك والعبادة .

ونذاعُ الجانب الروحي إلى الجانب السياسي فهل من شك في أن كثيراً ممن تبعوا الأمويين ، ونظفوا شعرهم فيهم ، إنما تبعوهم حباً في أموالهم وطلباً لذيولهم ؟ . ونفس الذين خاصدوهم من زُبَيْرِ بْنِ خُوَارِجٍ وشيعةٍ إنما كانوا يخاصمونهم — في أغلب الظن — حباً لما في أيديهم من مال ودُنْيَا يريدون أن يتحولوا إليهم . ففي الظاهر أحزابٌ سياسية ، وفي الباطن دوافعٌ ومحركات اقتصادية .

فالعامل الاقتصادي كان له أثره العميق في حياة الناس والشعراء في أثناء هذا العصر كما هو دائماً في كل عصر ، ويستطيع الإنسان أن يلاحظ أثره في جميع جوانب الشعر الأموي ، حتى في الشعر الحماسي الذي كان يُنظَّم في الفتح والجهاد في سبيل الله ، فإنه لم يَخْلُ هو الآخر من أثر مادي اقتصادي ، فهذا نَهَارُ بْنُ تَوْسِعَةَ يَقُولُ فِي رثَاءِ الْمُهَلَّبِ قَائِدِ الْجِيوشِ فِي خُرَّاسَانَ (١) :

أَلَا ذَهَبَ الْغَزْوُ الْمُقْرَبُ لِلْغَنَى وَمَاتَ النَّدَى وَالْجُودُ بَعْدَ الْمُهَلَّبِ

وليس معنى ذلك أن العرب لم يفتحوا الفتح إلا من أجل المال وجمع الثروات ، فقد كان الدين لا يزال غَضًّا في نفوسهم ، ولا تزال النزعة الروحية أقوى فيهم من النزعة المادية ، ولكن المادة على كل حال كان لها تأثير قليل أو كثير فيهم .

ونحن لا نستطيع أن نَفْصِلَ في هذا العصر أي جانب من جوانب الحياة عن المادة ، فهي تتعدى في كل شيء . وما لاريب فيه أنها أصبحت أقوى أثراً وأبعد عملاً في حياة العرب في أثناء هذا العصر مما كانت عليه في حياتهم الجاهلية ، فقد خرجوا إلى المدن واتسعت بهم ضرورات الحياة . وفرق بين رجل البادية ورجل المدينة في المطالب اليومية لحياته وبعيشتة .

ومن أهم ما يلاحظ في هذا الصدد من تَغْيِيرٍ أن شعر الحماسة القديم لم يعد اللونَ الغالبَ في الشعر العربي ، فقد تطورت الحياة واختلفت ، اختلف مصيبتها واختلف منبعها ، وأصبح المديحُ أهمَّ لونٍ بارز في لوحة الشعر لسبب بسيط هو اتساع ضرورات الحياة العربية الجديدة .

وكانت دمشق وأموالها مفرجَ الشعراء من أقصى البوادي إلى أقصى الخواضر ، فهم يَشُدُّون إليها الرِّحال من الحجاز والعراق ، يستمحبون خلفاءها بهذه الطرائف من مدائحهم ، ويعودون من عندهم بِجُرِّ الحقائق قد مألؤها بالعطايا الجزيلة . ومن خير ما يصور ذلك قولُ جرير يمدح عبد الملك بن مروان على لسان زوجته أم حَزْرَةَ^(١) :

تَعَزَّتْ أُمُّ حَزْرَةَ ثُمَّ قَالَتْ رَأَيْتُ الْوَارِدِينَ ذَوِي لِقَاحِ^(٢)
تَعَلَّلْتُ وَهِيَ سَاغِبَةٌ بَنِيهَا بِأَنْفَاسٍ مِنَ الشَّيْمِ الْقَرَاحِ^(٣)
ثَقِيَ بِاللَّهِ لَيْسَ لَهُ شَرِيكَ وَمِنْ عِنْدِ الْخَلِيفَةِ بِالنَّجَاحِ
أَغْنَيْتَنِي يَا فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي بِسَيِّبٍ مِنْكَ إِنَّكَ ذُو أَرْتِيحِ^(٤)
سَأَشْكُرُ إِنْ رَدَدْتَ عَلَيَّ رِيثِي وَأُنَبِّئُ الْقَوَادِمَ فِي جَنَاحِي

فهو يعلن على لسان زوجته حاجته الملحة إلى المال . ويَرَوِي الرواة أن عبد الملك قال له هل تُروِيها مائة لَفْحَةٍ؟ وأمر له بها وبثمانية من الرِّعَاءِ^(٥) . ومثل هذا العطاء هو الذي كان يَسِيلُ له لُعَابُ الشعراء ، فكانوا يقفون في صفوف بني أمية . ومن كان منهم معارضاً كان يجزُّه مال بني أمية جَرّاً ، فابنُ قيس الرقيات وكُثَيْبُ والطَّرِّ مَاحٍ لم يكونوا يجدون بأساً في مدح بني أمية ، ما دام مدحهم يملأ حجورهم بالمال .

وعلى هذه الشاكلة ولنفس السبب تعلق الشعراء بمدح ولاية بني أمية ، فكان جريرُ شاعرَ الحجاج قبل أن يكون شاعرَ عبد الملك . وكان زياد بن أبيه ، وابنه عبيد الله ، وبشر بن مروان ، ونخالد القَسْرِي ، يَصِلُونَ الشعراء وَيُسَبِّحُونَ عليهم

(١) الديوان ص ٩٧ .
(٢) اللقاح: جمع لفحة، وهي الناقة الحلوب .
(٣) تعلل: تشغل وتلهي ، الشيم: البارد ،
(٤) السيب: العطاء .
(٥) أغاني ٦٨/٨

عطاياهم ، وفيهم وفي أمثالهم يقول ذو الرمة^(١) :

وما كان مالى من تراثٍ ورثتهُ ولا ديةً كانت ولا كسبٍ مأتمٍ
ولكن عطاءُ الله من كلِّ رحلةٍ إلى كلِّ محجوبٍ السُّرادِ قِ حِضْرِمِ^(٢)

فدو الرمة وغير ذى الرمة من الشعراء كانوا يُشرون من عطاء الولاة . وقد امتلأت دواوين هذا العصر بمدائحهم ، واشتهر بعضهم بلزومه لوالٍ خاص . وبنفس الصورة كانوا يلزمون القواد ، وقد أشادوا إشادة رائعة بالمهلب قائد الجيوش الأموية ضد الترك فى خراسان ، كما أشادوا بأبنائه وخاصة يزيد . وكان المهالبة فى دولة بنى أمية ، كما كان البرامكة فى دولة بنى العباس ، مضرب المثل فى الجود والكرم ، وفيهم يقول بكثير بن الأحنس^(٣) :

نزلتُ على آل المهلب شاتياً فقيراً بعيد الدار فى سنّة محلٍ
فما زال بى إطفاهم وافتقادهم وإكرامهم حتى حسبهم أهلي

وقال فى كلمة له أخرى^(٤) :

وقد كنت شيخاً ذا تجارب جمّة فأصبحت فيهم كالصبي المدلل

وفى كل مكان من مدائح هؤلاء الشعراء للقواد والولاة والخلفاء نجد إشادة بالكرم . والتغنى بالكرم قديم منذ الجاهلية ، ولكنه أخذ يتسع فى هذا العصر بحكم ضرورات الحياة العربية ، وما كانت تستلزمه من مال .

وإذا كانت الجاهلية قد اشتهرت بحاتم الطائي الذى ضربت الأمثال بكرمه وجوده فإن عصر بنى أمية أخذ يكثر فيه هؤلاء الأجواد الكرماء ، وقد رقدتهم الفتوح والغزوات بما يشاءون من الأموال ، فأخذوها على الشعراء ، يطلبون حُسن الذكر والأحدثثة . وفى (المخبر) لابن حبيب ثبت طريف بأجواد العرب فى الإسلام^(٥) . وأول ما يلاحظ على هذا الثبت كثرة الأجواد فى الإسلام بالقياس إلى

(٤) بيان ٢٢٤/٣ .
(٥) المخبر لابن حبيب (طبع حيدرآباد) ص ١٤٦ .

(١) الديوان ص ٦٣٣ .
(٢) الحضرم : الكثير الخير .
(٣) بيان ٢٣٣/٣ .

الجاهلية ، وهذا طبيعي لكثرة الأموال التي صبّت في حجور القوم من جهة ،
واتساع ضرورات الحياة على الناس من جهة ثانية . ومن هؤلاء الأجداد عبد الله بن
جعفر بن أبي طالب أشهر أجداد الحجاز في عصره ، وقد استنفد مديحه كثيراً
من شعر ابن قيس الرقيّات ، وفيه يقول (١) :

أَتَيْنَاكَ نُشْنِي بِالذِي أَنْتَ أَهْلُهُ عَلَيْكَ كَمَا يُشْنِي عَلَى الرَّوْضِ جَارُهَا
وَعِنْدِي مِمَّا خَوَّلَ اللَّهُ هَجْمَةً عَطَاؤُكَ مِنْهَا شَوْلُهَا وَعِشَارُهَا (٢)
إِذَا مَتَّ لَمْ يَوْصَلْ صَدِيقٌ لَمْ تَقْسُمْ طَرِيقٌ مِنَ الْمَعْرُوفِ أَنْتَ مَنَارُهَا

ومن هؤلاء الأجداد أيضاً عتّاب بن زرقاء الرياحي ، وأسماء بن خارجة ،
وظلحة الطلّحات ، وعكرمة الفياض ، وفيه يقول الأخطل (٣) :

وَإِذَا عَدَلْتِ بِهِ رِجَالًا لَمْ تَجِدْ فَيُضُّ الْقَسْرَاتِ كَرَاشِحِ الْأَوْشَالِ

ومنهم عمر بن عبيد الله بن معمر التميمي ، ومحمد بن عمير بن عطارد
التميمي ، وزكريا بن ظلحة الفياض ، وقد تخصص بملحه الأقيشر (٤)
الأسدي .

وأسماء هؤلاء الأجداد الممدّحين تدور دوراتنا واسعاً في شعر هذا العصر
الأموي ، فقد كانوا يثرون أموالهم يميناً وشمالاً ، فسرعان ما يقصدهم الشعراء
ويتخصص فريق منهم بجداد معينين على نحو ما تخصص الأقيشر بزكريا
ابن ظلحة .

وإذا كان شعراء هذا العصر قد ملحوا الأجداد بلحودهم فإنهم ذموا البخلاء
ليخلطهم . وهذا كله معناه ارتفاع شأن المال في نفوسهم . ولعل من الطريف أننا
نجدهم في هذا العصر يندّمون بالفقر ، فالغنى مسجّدُ الأجداد ، ومن لا يجوز
عدّ ذليلاً ، ومن هنا يقول جرير في قوم يذمّهم (٥) :

(١) أغاني ٨٠/٥ .
(٢) الهجمة من الإبل : أولها أربعون وتزيد ،
والشول : التي أتى عليها من يوم نتاجها سبعة أشهر ،
والعشار : التي مضى لحملها عشرة أشهر .
(٣) أغاني ٣٢٠/٨ .
(٤) أغاني (طبع دار الكتب) ٢٥٥/١١ .
(٥) الديوان ص ٢٦٤ .

يُحَالَفُهُمْ فَفَقِرَ قَدِيمٌ وَذِلَّةٌ . وبشّ الخليفان المذلّة والفقرُ
فالفقر أصبح عيباً شديداً من عيوب المجتمع ، وأصبح الشعراء يتهاجون به ،
وكانهم يرون فيه مجمع العيوب ، فن قلّ ماله حينئذ قلّ حمده ، وصغرت
دنياه ، وصغرت شرفه .

وأخذت تظهر في بعض العرب آفة جديدة لم يُعرّفوا بها في الجاهلية ،
فإن ضرورات الحياة الجديدة في المدن جعلت قوماً يتحرّصون على مالهم ، فتعرض
لهم الشعراء يهجونهم ، فلم ينصرفوا عن عادتهم ، بل رأيناهم يأخذون موقفاً مقابلاً ،
فيمدحون البخل ويذمون الكرم . ومن اشتهر في هذا الاتجاه حميد الأرقط ،
وله أهاج مقذعة في الأضياف^(١) . وأبو الأسود الدؤلي وتروى عنه أقاصيص كثيرة
تُصوّر بُخله ، وكيف كان يُعلّنه ، ويدعو له ، ويثني عليه ، ومن
قوله فيه^(٢) :

يلومونني في البخل جهلاً وضلّةً وللبُخلُ خيرٌ من سؤالٍ بخيلٍ

وإذا كان المال قد كوّن هذه الجماعة من البخلاء الأشحَاء فإنه كوّن جماعة
أخرى من الصعاليك الذين يتخذون لإظهار الفقر والتصعلك وسيلتهم إلى طلب المال
من الأجواد . ومن أشهر من احترقوا هذه الوسيلة الحكم بن عبدل الكوفي^(٣) ،
ومن طريف ما يروى له قوله^(٤) :

يا أبا طلحة الجوادِ أغشني بسجّالٍ من سيبك المقسومِ
أحى نفسي فدنتك نفسي فأني مفلسٌ قد علت ذاك عديمٌ
ليس لي غيرُ جرةٍ وأصيصٍ وكتابٍ منمنمٍ كالوشومِ
ولكافٍ أعاريسهٍ نشيطٍ هو لحافٌ لكل ضيفٍ كريمِ^(٥)

وهو على هذا النحو في شعره يتصعلك ، ويصف ما في داره من حشرات
وجردّان ، وكيف بنى العنكبوت فيها بيوته ليظهر بؤسه وفقره ، ويضحك

(١) الكتب) ج ٢ ص ٤٠٤ .

(٢) الحيوان ٢٩٧/٥ .

(٣) الإكاف : البرذعة . وهو بالسكون لغة في هو .

(١) ابن عبد ربه ٣/٣٢٣ .

(٢) ابن عبد ربه ٣/٣٢٨ .

(٣) انظر ترجمته في الأغاني (طبع دار

ممدوحه ، وكأنه كان مقدمة للأدباء الصعاليك الذين ظهروا في القرن الرابع للهجرة^(١).

وهكذا لوئت المادةُ الشعرَ في عصر بني أمية ألوانًا مختلفة ، وأكثرُ هذه الألوان جاء من تطور حياة القوم الجديدة في المدينة واختلافها عن حياة آبائهم في الجاهلية ، وما اتصل بهذه الحياة الجديدة من ضرورات العيش . وفي كتب الأدب قطعٌ تشتمل على حوار طريف بين الشعراء وزوجاتهم عن المال الذي يملكونه ، واستمع إلى أعشى همدان يقول^(٢) :

قالت تُعَاتِبِي عِرْمِي وتَسْأَلِي أَيْنَ الدَّرَاهِمُ عِنَّا والدنانيرُ
فقلتُ أنفقْتُها واللهُ يُخلفُها والدهرُ ذو مرةٍ عُسْرٌ وميسورُ
إن يرزقِ اللهُ أعدائي فقد رزقتُ من قبلهم في مراعيها الخنازيرُ
قالتُ فِرْزُكُ رزقٌ غير مُتَمَعٍ وما لديك من الخيراتِ قِطْمِيرُ
وقد رَضِيتَ بأن تَحْيَا على رَمَقٍ يومًا فيومًا كما تَحْيَا العصافيرُ

وكان العرب في الجاهلية يستطيعون أن يحيا حياة العصافير هذه التي تشير إليها زوجُ أعشى همدان يغدون خماصًا ويربحون بيطانًا ، يطلبون رزقهم أحيانًا ، ويقع لهم رزقهم من غير طلب أحيانًا ، أما اليوم في عصر بني أمية فلا يستطيع شخص أن يحصل على قوته بدون طلبه واحتيااله في الطلب ، فإما أن يغدو خميصًا جائعًا ويروح خميصًا جائعًا ، وإما أن يغدو شبعًا بطينًا ويروح شبعًا بطينًا ، فليس هناك توسط ، وليس هناك رزق يأتي من حيث لا يَحْتَسِب الشخص ، والحياة لا تَرَحِّمُ ، أو قل إن حياة المدن لا ترحم ، فإما أن تجد المال فتعيش ناعمًا هادئ البال ، وإما أن لا تجده فتعيش شقيًا محرومًا .

ومن هنا ارتفع صوت المال في القصيدة الأموية ، واحتلَّ جوانب غير قليلة منها ، فقد كان أساسيًا في حياة الناس ، فطبيعي أن يكون أساسيًا في فنههم وشعرهم . أليس دعامة هامة من دعائم الحياة ؟ فلم لا يكون دعامة هامة من دعائم البناء الفني ؟ إنه يستقر في قاع الحياة وقاع الشعر ، لأن الشعر إنما هو تعبير عن الحياة .

(٢) حيوان ٦٢/٧ .

(١) انظر الفن ومذاهبه في النثر العربي (طبع دار المعارف) ص ٢٤٨ وما بعدها .

ولم يُعَبِّرَ الشعر الأموي عن المال والمادة والحياة الاقتصادية من الوجهة العامة فحسب، وإنما عبّر أيضاً عن النظم الاقتصادية الموضوعية، وكان قد دخلها اضطراب كثير في هذا العصر، فمن جهة كثرت الإقطاعات للولاة والعمال وزعماء العرب^(١) ومن جهة فُرِضَ على الناس كثير من الضرائب الاستثنائية، وكان الولاة يَسْتَفْسِنُونَ في ذلك، فتارة تُفَرِّضُ باسم أجور عمّال الخراج، وتارة تفرض باسم نفقات العقود وسكّ النقود وغير ذلك^(٢).

ومن خلال هذه الضرائب الاستثنائية كان ينفذ الولاة إلى جمع الأموال والثروات ويكفي لتصور ما كانوا يجههونه لأنفسهم أن تعرف أن الحجاج حين صرف المهلب عن الأهواز إلى خراسان كان عليه لبيت المال ألف ألف درهم^(٣). ولما عُرِزَ يزيد بن المهلب عن خراسان كان عليه لبيت المال ستة آلاف ألف درهم^(٤)، وفي بعض الروايات أن شخصاً يسمى مُقاتل بن مِسْمَعٍ وَلى سِجِسْتَانَ، فأتاه الناس، فأعطاهم الأموال، فلما قدم البصرة بسط الناس له أرديتهم، فشى عليها وقال: لمثل هذا فليعمل العاملون. وقد بلغ راتب خالد القسري نحو عشرين ألف ألف درهم؛ بينما كان ما يأخذه لنفسه يزيد على مائة ألف ألف. ولما ولى يوسف بن عمر الثقفي بعده حبسه هو وثلاثمائة وخمسين من عماله وموظفيه، واستخرج منهم سبعين ألف ألف^(٥).

ويظهر أن هذه الحال بدأها العمال وولاة الخراج في عصر مُبَكَّرٍ فنحن نجد شاعراً في عهد عمر بن الخطاب يسمى يزيد بن الصَّعِقِ، يُرْسِلُ إليه بشكوى من الولاة، وخاصة القائمين على الخراج، وفيها يقول^(٦):

نُؤِوبُ إِذَا آبُوا وَنَغَزُوا إِذَا غَزَوْا فَأَنْتَى لَهُمْ وَقَرٌّ وَلَسْنَا أَوْلَى وَقَرٍّ
إِذَا التَّاجِرُ الدَّارِيُّ جَاءَ بِفَارَةٍ مِنَ الْمَسْكِ رَاحَتٌ فِي مَفَارِقِهِمْ تَجْرِي^(٧)
فهو يلاحظ عليهم ثراءً حادثاً، بل يلاحظ عليهم ترفاً، لا يجدهم لغيرهم

(١) في فتوح البلدان للبلاذري ص ٣٦١ وما بعدها فصل طريف عن إقطاعات البصرة وما أعطى منها لزعماء العرب وولاة العراق.
(٢) انظر الطبري ١٣٦٦/٢ وما بعدها.
(٣) طبري ١٠٣٤/٢.
(٤) طبري ١٢١٣/٢.
(٥) يعقوبي ٣٥٥/٢ وكذلك ٣٨٨/٢.
(٦) فتوح البلدان ص ٣٨٤.
(٧) الفارة: نافجة المسك.

من عامة الناس . وإذا تقلمنا إلى العصر الأموي اتسعت هذه الظاهرة ظاهرة ثراء الولاية وعمال الخراج مما يجمعون من الأموال . وفي ديوان جرير والفرزدق وغيرها من شعراء هذا العصر شكوى كثيرة من جُباة الخراج وما يتبعون من عَسْفٍ وظلم في استخراج المال من الناس . ونجد شاعراً يسمى أنس بن أبي أناس يقول لحارثة ابن بدر الغداني صاحب زياد بن أبيه حين وليَ على سُرَّق ، وهي إحدى كَوَرِ الأهواز (١) :

أحارِ بن بَدْرِ قد وليتَ إمارةً فكن جُرَدًا فيها تخونُ وتَسْرِقُ
وباهِ تميماً بالغِنَى إن للغِنَى لساناً به المسرء الهَيُوبَةُ ينطق
ولا تحقِرَنَّ يا حارِ شيئاً أصبتهُ فحظُّك من مُلكِ العِراقين سُرَّقُ

وكانما أصبحت الولاية على الكُور والمدن في رأى الناس الثراء وجمع الأموال حتى يصبح المرء غنياً ، فللغنى كما يقول الشاعر لسانٌ يغطى على عيوب الإنسان ! ويروى أن حارثة سمع هذا الشعر فقال : لا يعصمى عليه الرشد ، وكأنه رأى في قوله هُدَى أرادته له ! . . وهناك وثيقة طريفة عن عمال العراق وأصحاب الخراج في عصر ابن الزبير ، وما نقصوا الناس من ثمرات ، فقد كتب ابن همام السلولي أحد الشعراء شكوى طويلة فيهم إلى ابن الزبير ، وهي تجرّى على هذا النمط (٢) :

يا ابنَ الزبير أمير المؤمنين ألم بعلتُ الخراج شِحاهاً قسمةً النَّفْلِ
باعوا التِّجارَ طعامَ الأرض واقتسموا جلدُ القوي ليس بالواني ولا الوكيل
وفيك طالبٌ حقٌّ ذو مرانبةٍ واشف الأراذل من دُخْرُوحه الجِعَلِ (٣)
اشدُّدٌ يديك بزيدٍ إن ظفرت بهِ يرى الخيانة شربَ الماء بالعَسَلِ
إنا مُنيننا بضَبِّ من بنى خَلَفِ (٤) حتى ينوءَ بشرِّ بعد مُقتَبَلِ
خذلِ العَصيفير (٥) فانتف ريشَ ناهضِهِ

ولي الكوفة لابن الزبير ثم عزله . وزيد : مولى لعتاب بن ورقاء وكان خازن دحرورية الجمل .
(٤) هو دحرورية الجمل السابق .
(٥) الصيفير : عبد الله بن أبي صيفير والى المدائن .

(١) الشعر والشعراء ص ٤٦٢ وانظر الحيوان ١١٦/٣ .

(٢) الجزء الخامس من أنساب الأشراف (طبعة بيت المقدس) ص ١٩١ وما بعدها .
(٣) دحرورية الجمل : عامر بن سمود الذي

لا غَمَزَ فِيهَا وَلَكِنْ جَمَّةُ السُّبُلِ
بِسُرَّةِ الْأَرْضِ بَيْنَ السَّهْلِ وَالْجَبَلِ
وَمِنْ عَدَّرَتْ فَلَا تَعْذِرُ بَنِي قَفْلٍ (٤)
إِلَى الْخَبِيصِ عَنِ الصَّحْنَاءِ (٥) وَالْبَصْلِ
كَمَنْ غَزَا دَسْتَبَنِي (٦) غَيْرَ مُجْتَعِلٍ
مُسْتَهْزِئًا بِغِنَاءِ الْقَيْنَةِ الْفُضْلِ (٧)
فَزَالَ مَهْرَانٌ مَذْمُومًا وَلَمْ يَسْزُلِ
قَبْلَ السَّبْعِ فَقَدْ أُجْرِيَ عَلَى مَهْلٍ
لِكُلِّ أَرْزُقٍ مِنْ هَمْدَانَ مَكْتَحِلٍ
أَنْبَيْتُ عَامِلَهُمْ (١٢) قَدْرَاحٌ ذَا ثِقَلٍ
مِنَ الْمَتَاعِ قِيَامُ اللَّيْلِ بِالطَّوْلِ
بَعْضُ الْمَنَالَةِ إِنْ تَرَفَّقُ بِهَا تَسَلِّ
بِكُرٍّ عَلَيْهِ غَدَاةَ الرَّوْعِ وَالْوَهْلِ
إِنْ نَالَ شَيْئًا بِذَلِكَ الْخَائِفِ الْوَجَلِ
إِذَا تَجَاوَزْتَ عَنْ أَعْمَالِهِ الْأَوَّلِ
وَاحْمِلْ خِيَانَةَ مَسْعُودٍ (١٨) عَلَى جَمَلٍ

وَمَا أَمَانَةٌ عَتَابٍ (١) بِسَالِمَةٍ
وَقَيْسٍ (٢) كَنْدَةَ قَدْ طَالَتْ إِمَارَتَهُ
وَحَذَّ حُجْبِيرًا (٣) فَأَتْبَعَهُ عَاسِبَةً
مَا رَأَى مِنْهُمْ إِلَّا ارْتِفَاعَهُمْ
وَمَا غَلَامٌ عَلَى أَرْضٍ مَسَالِمَةٍ
يُجْبِي إِلَيْهِ خَرَاجُ الْأَرْضِ مُتَكَثِّمًا
وَالْوَالِي (٨) الَّذِي مَهْرَانٌ (٩) أَمْرَهُ
وَدَوْلِكَ ابْنُ أَبِي عَشٍّ (١٠) وَصَاحِبَتِهِ (١١)
لَا تَجْعَلَنَّ [مَالٍ] بَيْتَ الْمَالِ مَأْكَلَةً
وَمَنْقُذُ بْنُ طَرِيفٍ مِنْ بَنِي أَسَدٍ
وَمَا أُخْيَسِيسٌ (١٣) جُعْفِيٌّ بِمَانِعِهِ
وَأَخْرَانٌ مِنَ الْعَمَّالِ عِنْدَهُمَا
مُحَمَّدٌ (١٤) بْنُ عُمَيْرٍ وَالَّذِي كَذَبَتْ (١٥)
وَمَا فَرَاتٌ (١٦) وَإِنْ قِيلَ امْرُؤٌ وَرِعٌ
وَالْحَارِثِيُّ (١٧) سِيرَضِيٌّ أَنْ تَقَاسَمَهُ
وَادْعُ الْأَقَارِعِ فَاقْرَعَهُمْ بِدَاهِيَةٍ

- (١) هو عتاب بن ورقاء الرياحي الجواد المشهور .
(٢) يزيد قيس بن يزيد بن عمرو بن شراحبيل الكندي .
(٣) يزيد حجير بن حجار بن الحر ، كان على الزواب .
(٤) بنوقفل : من تيم بن ثعلبة وكانوا على صدقات بكر .
(٥) الصحناء : طعام يتخذ من صفار السمك .
(٦) دستبي : كورة كبيرة في فارس بين الرى وهمدان .
(٧) القينة الفضل : التي تلبس ثوباً واحداً كأنها مبتذلة .
(٨) يزيد سعيد بن حرملة بن الكاهل الوالي .
(٩) مهرا ن : مولى لزياد وهو الذي جعل

- الوالي في عداد العمال .
(١٠) كان ابن أبي عيش هذا والياً على الدينور .
(١١) هو عبدالرحمن بن سعيد بن قيس الهمداني .
(١٢) يزيد نعيم بن دجاجة ، وكان على أسفل الفرات .
(١٣) هو زحر بن قيس ، وقيل هو محمد بن أبي سبرة وكان على جوصي .
(١٤) يزيد محمد بن عمير بن عطارد أحد أجواد العراق المشهورين .
(١٥) هو يزيد بن رويم .
(١٦) يزيد فرات بن زحر ، قتله المختار يوم السبيح .
(١٧) يزيد السري بن وقاص وكان على نهاوند .
(١٨) مسعود هذا من بني أسد .

كانوا أتوتنا رجالا ، لا ركاب لهم
 لن يُعْتَبُوكَ ولا يَعْلُ هَامَهُمْ
 إن السياط إذا عَضَّتْ غَوَارِبَهُمْ
 فأصبحوا اليوم أهل الخيل والإبل
 ضَرَبُ السياطِ وشَدُّ بَعْدُ فِي الحُجُلِ^(١)
 أَبَدُوا ذَخَائِرَ مِنْ مَالٍ وَمِنْ حُلَلٍ
 ويخيل إلى الإنسان أن ابن همام لم يترك والياً من الولاة الزبيريين المهمين في
 العراق إلا حشده في هذا الثبت ، فهؤلاء العمال جميعاً لا يُوفُونَ الأمانة حَقَّهَا إلا
 غصباً واحتيالاً على اقتطاع أموال الناس .

وكما شككنا ابن همام من عمال الخراج شكنا من عمال الصدقات ، فقد شكنا
 من بني قفيل الذين كانوا على صدقات بكر بن وائل . وفي كتب الأدب نصوص
 كثيرة يشكو فيها بدو نجد من المشرفين على صدقاتهم . وهناك وثيقة مهمة
 قدمها الراعي الشاعر المعروف إلى عبد الملك بن مروان ، وضمنها شكوى مرة ،
 وقد كتبها بلسان قومه من بني نمير ، وفيها يقول (٢) :

أبْلِغْ أميرَ المؤمنين رسالةً
 تشكو إليك مَضَلَّةً وَعَوِيلاً
 أخليفةَ الرحمنِ إنا معشرٌ
 حَفَاءُ نَسْجُدُ بِكُرَّةٍ وَأَصِيلاً
 عَرَبٌ نرى لله في أموالنا
 حَقَّ الرِّكَاةِ مَسْتَرِلاً تَتْرِيلاً
 إن السعاة عَصَوْكَ يومَ أمرتَهم
 وَأَتُوا دَوَاهِي لَوْ عَلِمْتَ وَعُؤِلاً
 أَخَذُوا العَرِيفَ فَقَطَعُوا حَيَزُومَهُ
 بِالْأَصْبَحِيَّةِ قَائِمًا مَغْلُولًا^(٣)
 حَتَّى إِذَا لَمْ يَتْرَكُوا لِعِظَامِهِ
 لَحْمًا وَلَا لِفَوَادِهِ مَعْقُولًا
 جَاءُوا بِصَكَّتِهِمْ وَأَحْدَبَ أُسَارَتَ
 مِنْهُ السَّيَاطُ بِسَرَاعَةٍ لِجَفِيلاً^(٤)
 أَخَذُوا حَسْمُولَتَهُ وَأَصْبَحَ قَاعِدًا
 لَا يَسْتَطِيعُ عَنِ الدِّيَارِ حَوِيلاً^(٥)
 يَدْعُو أميرَ المؤمنين ودونه
 خَسْرَقٌ تَجْرُ بِه الرِّيحُ ذِيولًا^(٦)
 كَهْدَاهِدٍ كَسَرَ الرَّمَاةُ جَنَاحَهُ
 يَدْعُو بِقَارِعَةِ الطَّرِيقِ هَدِيلاً
 أَخْلِيفَةَ الرَّحْمَنِ إِنْ عَشِيرَتِي
 أَمْسَى سَوَامُهُمْ عَزِيزِينَ فُلُولًا^(٧)

الأحذب : العريف . أسارت : أبيت ، اليراعة :

(١) الحجل : جمع حجل وهو القيد .

(٢) انظر جمهرة أشعار العرب لأبي زيد

القرشي (طبع المطبعة الرحمانية) ص ٣٥٥

وقد أصلحنا النص في غير موضع .

(٣) العريف : شيخ القبيلة . الحيزوم :

الوسط ، الأصبحية : السياط .

(٤) الصك : الصحيفة الخاصة بالصدقات ،

الجبان ، وكذلك الإجيل .

(٥) الحمولة : ما يحمل عليه من الدواب ،

حويلا : تحويلا .

(٦) الحرق : الفلاة .

(٧) السوام : الإبل ترعى . عزيز : متفرقة

من هزالها .

قَوْمٌ عَلَى الْإِسْلَامِ لَمَّا يَمْنَعُوا
 قَطَعُوا الْيَمَامَةَ يُطْرَدُونَ كَأَنَّهُمْ
 يَحْدُونَ حُدُبًا مَائِلًا أَشْرَافُهَا
 شَهْرَى ربيعٍ ما تَلُوقُ لَبُونُهُمْ
 وَأَتَاهُمْ يُجِي فَشَدَّ عَلَيْهِمْ
 كُتُبًا تَرْكُنُ غَنِيَّتَهُمْ ذَا عَيْلَةٍ
 إِنْ الَّذِينَ أَمَرْتَهُمْ أَنْ يَعْدِلُوا
 أَنْتَ الْخَلِيفَةُ عَدْلُهُ وَنَوَالُهُ
 فَادْفَعْ مِظَالِمَ عَيْلَتِ أبنَاءِنَا
 فَرَى عَطِيَّةَ ذَاكَ إِنْ أُعْطِيَتْهُ
 فالراعى يستغيث ويستنجد بعبد الملك من عمال الصدقات وما يصبون على

قومه من أسواط العذاب ، فهذا العريف نكّلوا به شر تنكيل ، فقطعوا حيزوه ،
 وأخلوا ناقته التي تحمله ، وبقى لا يملك شروى نقيير ، وهو ملقّى هناك كهدهد
 كُسر جناحه ، يصيح ويصرخ ، ولا يجد من يرق له غير هؤلاء الظالمين من
 عمّال الصدقات . ويقول الراعى إننا حُسنَاء نسجد بكثرة وأصيلا ، ونُدفع
 حق الزكاة لأنه منزل في القرآن الكريم تنزيلا ، إلا أن قحطاً عظيماً أصابنا ،
 ومع ذلك فيحى وأصحابه يتشدّدون فيفرضون علينا صدقات ثقيلة لا نستطيع أداءها .
 والقطعة في مجموعها صرّاخ وشكوى وعويل .

وإذا كان هذا يحدث في نجد وبين البدو من العرب فما كان يحدث في
 ريف العراق من العسف والظلم في جمع الخراج كان أشدّ وأحدّ ، ويكنى أن
 الموالي اضطروا إزاء ذلك أن يهاجروا من الريف إلى المدن ، مما جعل الخراج
 يسقط في عهد الحجاج من ١٢٠ ألف ألف إلى ٢٥ ألف ألف (٨) .

- (١) الماعون : الزكاة .
 (٢) الحدب : الإبل ، الأشراف : الأسمنة .
 المقربة : الطريق في الجبل . الرعيل : القطيع .
 يريد أنها من ضعفها تنقطع وهي سائرة .
 (٣) اللبون : الناقة ذات اللبن . الذليل :
 اليابس .
 (٤) المقد : ما كتبه عليهم من الصلقات .
 (٥) العيلة : الفقر .
 (٦) الفتيل ما يكون في شق النواة ، يريد
 أنهم لم يفعلوا شيئا .
 (٧) عيلت : من التميل ، وهو سوء الغذاء .
 الشلو : العصور .
 (٨) تاريخ اليعقوبي ٣٤٩/٢ .

ويظهر أن هذه الهجرة زادت ، ففزع عمال الخراج إلى الحجاج ، حتى يرجع الموالي إلى ريفهم ، فرسم بأن من كان له أصل في قرية يجب أن يخرج إليها ، يقول الطبرى : « فخرج الناس وعسكروا ، وجعلوا يبكون وينادون : يا محمداه ! يا محمداه ! وجعلوا لا يدرون إلى أين يذهبون^(١) » وتذهب الروايات إلى أن الحجاج أمر بوشم أيديهم حتى لا يعودوا إلى المدن أبداً^(٢) .

ولا شك في أن هذه المعاملة القاسية كانت سبباً في كثرة الثورات في العراق ، فكلما ثار ناثر هناك مثل عبد الرحمن بن الأشعث أو يزيد بن المهلب وجدنا العراقيين يتجمعون حوله ، وخاصة هؤلاء الموالي المظلومين فيما يؤدون من خراج وضرائب استثنائية . فلما وليَ عمر بن عبد العزيز أواخر القرن الأول للهجرة وقَف هذا كله سواء في العراق أو في خراسان أو في غيرها من البلدان الإسلامية . وكان مما كتبه إلى عامله في خراسان هذه الجملة المأثورة : « إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم داعياً ، ولم يعثه جايياً^(٣) » . وكتب إلى عامله في الكوفة أن يلغى الضرائب الاستثنائية ، وأن لا يأخذ إلا الخراج ، فقبوا^(٤) الدين العدل والإحسان^(٤) .

ومع ذلك فيظهر أن عمال عمر بن عبد العزيز أنفسهم لم يستطيعوا أن يسيروا على منهاجه الذى رسمه ، وكان ما وضعه العمال السابقون من شدة وظلم كان لا يزال عالقاً في نفوسهم ، أو على الأقل في نفوس بعضهم ، فنحن نجد طائفة من الشعراء تترفع صُحُفًا إلى عمر بن عبد العزيز تشكو فيها من عماله ، فهذا كعب الأشقرى يقول له^(٥) :

إن كنت تحفظ ما يليك وإنما عمال أرضك بالبلاد ذئاب
لن يستجيبوا للذى تدعو له حتى تجلّد بالسيوف رقاب

ويروى الرواة أن شاعرًا تعرّض له وهو على المنبر ، فقال^(٦) :

(٤) طبرى ١٣٦٦/٢ .
(٥) البيان والبيان ٣٥٨/٣ .
(٦) البيان ٣٥٩/٣ .

(١) طبرى ١١٢٢/٢ .
(٢) الحيوان ١٦٥/٧ .
(٣) طبرى ١٣٥٤/٢ .

إن الذين بعثت في أقطارها نبذوا كتابك واستحلّ المحرم طُلُسُ الثيابِ على منابر أرضنا كلُّ يجورُ وكلهم يتنظلم^(١) وأردت أن يَلِيَّ الأمانة منهم عدلٌ وهيهات الأيمنُ المسلمُ

فكعب وصاحبه جميعاً يائسان من أن وصايا عمر الحديدية سينفذها هؤلاء العمال الذين وصلتهم فعلاً وصاياهم ، فاستغشوا ثيابهم ، وجعلوا أصابعهم في آذانهم ، أو قل إن بعضاً منهم صنع ذلك ، وأصرّ على أن يستمر في الطريق القديم ، كما يحدثنا الشاعر الثاني الذي اعترض عمر على المنبر ، وقال إن عماله نبذوا كتابه . وتعاهدوا على الجور ، وإن اليأس القاتل ليبليغ منه ، فيقول لعمر إنه لا يوجد عادل في رعيتك يستطيع أن يحتمل هذه الأمانة .

وأكبر الظن أنه قد اتضح الآن وضوحاً لا لبس فيه أن الشعر في عصر بني أمية مثل الحياة الاقتصادية من جميع أطرافها وما أصابها من تطور ، فهو من جهة صور نظم الدولة الاقتصادية وما اعتور تطبيقها من تحلل واضطراب ، وهو من جهة ثانية صور ضرورة المال في حياة العرب الحديدية ، وهي ضرورة - كما مر بنا - اتسع تأثيرها في محيط الشعر وخطوطه واتجاهاته .

(١) طلس الثياب : يريد أن ثيابهم غير نظيفة .